

الله

محمد

ta3allamdz.com

التوازن التربوي وأهميته لكل مسلم

تأليف

مجدی الھلالي



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1430هـ - 2009م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أئماء التشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

رقم الإيداع: 2008/25123

مركز السلام للتجهيز
عبد الحميد عمر

دار السراج

توزيع

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

10 ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: 25326610 محمول: 0102327302 - 0126344043

صلى الله عليه وسلم
mail: iqraakotob@yahoo.com



المقدمة

رب يسر واعن يا كريم

الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، والصلوة والسلام على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالتربيـة مصطلح شائع ومتداول بين الناس على اختلاف ثقافـتهم ومشارـكـهم، وهو يحمل في طيـاته معنى التغيـير - سواء كان سلبيـاً أم إيجابـياً - فالذـي يريد من نفسه أو من حوله سلوكـاً دائمـاً في اتجـاه (ما)، لا بد من أن يتـرى أو يريـهم عليهـ، فمن أراد - مثلاً - اكتـساب مهـارـة قيـادة السيـارات لا يكـفيـه التـعـرـف على قوـاعد وأسـاليـب الـقيـادة من النـاحـية النـظـرـية، بل لا بد لهـ من المـمارـسة العـملـية لـالـقـيـادة لمـدة مـعـتـرـبة، والـذـي يريد عـضـلات قـويـة وحـسـمـاً مـفـتوـلاً، فـمن الـضرـوري أن يـمارـس الـرياـضـة المؤـهـلة لـذـلـك وبـاستـمرـار حتى يصلـ إلى هـدـفـه... وهـكـذا.

والتربيّة ثابت من الثوابت ينبغي أن يتبنّاه كل من ي يريد تغييرًا إيجابيًّا في شخصيّته أو شخصيّة كل من يتولّه
أمرهم ويرجو صلاحهم.
فما هي التربيّة؟
وما هو هدفها؟
ما مجالُّها؟

وماذا يعني التكامل التربوي والرؤية التربوية؟

هل تتوقف التربية عند حد ما؟

وَمَا هِيَ إِلَّا سُبُّابٌ الَّتِي تَؤْخِرُ ظَهُورَ ثُمَّةَ التَّرْبِيةِ؟

لإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها كانت تلك الصفحات، والتي نسأل الله عز وجل أن تصحبنا فيها معيته وتوفيقه، فهو وحده ولِ ذلك القادر عليه " وَمَا تُوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " [هود: ١٠٦]

معنى التربية

يقول عبد الرحمن النحلاوي في حديثه عن مفهوم التربية:

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية وجدنا لكلمة «التربية» أصولاً لغوية ثلاثة:

الأصل الأول: ربٌ يربُّ بمعنى زاد ونم، وفي هذا المعنى نزل قوله تعالى: "وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لَيْرُبُّو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُّ عِنْدَ اللَّهِ" [الروم: 39].

الأصل الثاني: ربٌ يربُّ ومعناها: نشأ وترعرع.

الأصل الثالث: ربٌ يربُّ بمعنى أصلاحه، وتولى أمره، وسasse، وقام عليه ورعاه.

وقد اشتق بعض العلماء من هذه الأصول اللغوية تعريفاً للتربية. قال الإمام البيضاوي في تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل):

«الرب في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً».

وفي كتاب مفردات الراغب الأصفهاني: الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام⁽¹⁾.

ويقول د. ماجد عرسان الكيلياني: يعرف علماء التربية الحديثة «التربية» بأنها تغيير في السلوك. وهذا تعريف فيه قدر كبير من الدقة والصوابية شريطة أن يفهم من السلوك حلقاته الثلاث: حلقة الإرادة، وحلقة الفكرة، وحلقة الممارسة⁽²⁾.

التغيير والأثر الدائم:

من خلال ما تدل عليه التعريفات السابقة من معان يمكننا أن نصوغ تعريفاً إضافياً للتربية بأنها: «إحداث تغيير أو أثر دائم في الشيء».

فححدث أثر لحظي لا يندرج تحت مسمى التربية، فالذي ينفق مرة أو مرتين نتيجة تأثيره اللحظي بموقف تعرض له، أو سماعه لموعظة عن الإنفاق لا يمكن أن نصفه بأنه قد صار (منفقاً) إلا إذا صار الإنفاق سمة من سماته.

والذي استطاع أن ينام عدداً قليلاً من الساعات في ليلة من الليالي، واستفاد بوقته في إنجاز العديد من الأعمال، فإنه لا يصبح بهذه الليلة قد اكتسب أو تربى على قلة النوم إلا إذا صار ذلك سمتاً عاماً له.

(1) أصول التربية الإسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي ص 12، 13 باختصار وتصريف يسير - دار الفكر.

(2) مناهج التربية الإسلامية د. ماجد عرسان الكيلياني ص 77 - مؤسسة الريان - لبنان.

فالتربيـة هي : إحداث أثـر دائم في الشـيء ... مع العـلم بأن هـذا الأثـر قد يكون إيجـابـياً أو سـلـبيـاً، كـمن يـتـربـي على الكـذـب فيـصـير كـذـباً، أو من يـتـربـي على الشـح فيـصـير شـحـيـحاً، أو من يـتـربـي على الإـنـفـاق فيـكـون كـريـماً جـوـادـاً.

وعـمـلـية التـرـبـيـة تـحـتـاج إلى مـارـسـة دـائـمة وـمـتـكـرـرة حتـى تـظـهـر ثـمـارـها .. قال صـلـى الله عـلـيه وـسـلـمـ «الـخـيـر عـادـة...»⁽¹⁾.

الفـارـق بـيـن التـعـلـيم وـالتـرـبـيـة:

هـنـاك فـارـق كـبـير بـيـن التـعـلـيم وـالتـرـبـيـة، فـهـدـفـ التـعـلـيم هو إـيـصال المـعـلـومـة إـلـى المـتـعـلـم وـاستـيـعـابـه وـفـهـمـه لـهـ دون النـظـر إـلـى تـطـيـيقـه أو عدم تـطـيـيقـه لـمـقـضـاهـا.

أـمـا هـدـفـ التـرـبـيـة فـهـي إـيـصال المـعـلـومـة مع المـارـسـة المـسـتـمـرـة لـمـقـضـاهـا وـمـا تـدلـ عـلـيـهـ في الـوـاقـع الـعـمـلـي حتـى تـنـشـئـ في ذاتـ المـتـلـقـي أـثـراً دـائـمـاً يـنـتـجـ عـنـه تـغـيـرـ في سـلـوكـهـ.

فـلا تـكـنـيـ المـعـرـفـةـ النـظـرـيـةـ بـالـقـيـمـ وـالـأـحـلـاقـ لـكـي تـُـصـبـحـ وـاقـعاً مـلـمـوسـاًـ فيـ حـيـاةـ الـفـردـ، بل لـابـدـ منـ أـنـ يـتـربـيـ عـلـيـهـاـ، وـيـمـارـسـهـاـ مـرـاتـ وـمـرـاتـ.

مـنـ هـنـا نـدرـكـ أـهمـيـةـ التـرـبـيـةـ الصـحـيـحةـ التيـ تـهـدـفـ إـلـىـ تـكـوـنـ الفـرـدـ المـسـلـمـ الصـالـحـ المـصـلـحـ؛ لـذـلـكـ كانـ مـنـ أـهـمـ مـهـمـاتـ الرـسـلـ: التـرـبـيـةـ وـالتـزـكـيـةـ " هـوـ الـلـهـ الـذـي بـعـثـ فـيـ الـأـمـمـيـنـ رـسـوـلـاً مـنـهـمـ يـتـنـلـوـ عـلـيـهـمـ آـيـاتـهـ وـيـزـيـّـنـهـمـ وـيـعـلـمـهـمـ الـكـتـابـ وـالـحـكـمـةـ وـإـنـ كـانـوا مـنـ قـبـلـ لـفـيـ ضـلـالـ مـبـيـنـ" [الـجـمـعـةـ: 2ـ].

* * *

(1) حـسـنـ، روـاهـ اـبـنـ مـاجـهـ وـحـسـنـهـ الـأـلـبـانـيـ فيـ صـحـيـحـ الـجـامـعـ الصـغـيـرـ (3348).

حاجة الإنسان إلى التربية

خلق الله عز وجل الإنسان وجعل تكوينه يشمل أربعة مكونات رئيسية هي: العقل والقلب والنفس والجسد.

والإنسان يبدأ رحلته على الأرض -منذ خروجه من رحم أمه- بمحض المكونات الأربع وهي غير مكتملة النمو، بل جعلها الله سبحانه تبدأ صغيرة، محدودة الإمكhanات، لتنمو بعد ذلك بما أودع فيها من خاصية النماء.

ونماء هذه المكونات يستلزم دوام إمدادها بالغذاء الذي يناسبها.

فالجسد يخالق صغيراً ضعيفاً، ولكي ينمو لابد له من غذاء متنوع يلبي احتياجاته ويترك فيه أثره الدائم، وينتفع عنه دوماً طاقة تدفع صاحبه للنشاط والحركة.

ومع ضرورة إمداد الجسد بالغذاء المناسب لابد كذلك من دوام توجيه نشاطه وحركته بالطريقة التي تساهمن في نجاح المرأة في أداء وظيفتها على الأرض.

وما ينطبق على الجسد ينطبق على العقل والقلب والنفس، فلابد لهذه المكونات الثلاثة من تربية وإنماء حتى تكتمل وتصلح ويساهم كل منها بأثره في تنشئة المسلم الصالح المصلح الذي يقوم بوظيفته الأساسية؛ ألا وهي معرفة ربها وعبادته وخشيته بالغيب، وإقامة دينه في نفسه، ثم في نفوس المسلمين، وأن يجتهد في تبليغه للبشر جيعاً.

وكما أنه من الضروري استمرار تعاهد البدن وإمداده بما يصلحه حتى يستمر في النمو والتمتع بالصحة والحيوية؛ كذلك لابد من تعاهد العقل والقلب، والنفس بالإمداد بما يصلحهم، ودفع ما يضرهم حتى يستمر نموهم المعنوي في الاتجاه الصحيح، وبخاصة أن كلاًًا منهم يبدأ الحياة كما يبدأ الجسد.. محدود الإمكhanات والقدرات، ولديه قابلية للنماء، فالعقل يبدأ الحياة وهو فارغ من أي مخزون معرفي "وَالله أَخْرَجُكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً" [الحل: 78].

والقلب يولد على الفطرة كما قال صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»⁽¹⁾.

والنفس تبدأ رحلتها في الحياة ولديها القابلية للفجور والانفلات، وكذلك القابلية للاستكانة والتطويع "وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ◇ فَأَهْمَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا" [الشمس: 7، 8].

ولئن كان أمر تعاهد البدن وتربيته لا يحتاج إلى توجيه دائم -فيما يخص الغذاء- باعتبار أنه أمر محسوس وظاهر؛ إلا أنها لا تتعامل مع عقولنا وقلوبنا وأنفسنا بنفس الدرجة من الاهتمام لأنها -من ناحية- لا تراهم بأعيننا، ولا نكاد نستشعر احتياجاتهم.

(1) رواه البخاري ومسلم.

ومن ناحية أخرى فإن هذه المكونات الثلاثة يحدث لها نمو ولكنه -في الغالب- ليس بالشكل المطلوب، أو في الاتجاه الصحيح، فعلى سبيل المثال:

العقل -بعد الولادة- يبدأ في استقبال المعلومات من كل الاتجاهات دون تمييز بين صحيحتها وسقيمها، ثم تبدأ هذه المعلومات شيئاً فشيئاً في تشكييل يقينه ومعتقداته ونظرته للحياة ومفرادتها.

ضرورة التربية الصحيحة:

من هنا تبرز أهمية التربية الصحيحة، فالمسلم لن يصلح حاله، ولن يكتمل نموه، ولن يرى الشمار الصحيحة لعبوديته لربه عز وجل إلا إذا اهتم بالجوانب الأربع التي تشكل كينونته.

فعندما يترك العقل دون تربية وإنماء في الاتجاه الصحيح، فمن المتوقع أن يفسشو الجهل، وتتغير الأولويات، وتضطرب المفاهيم، وتكثر الشبهات، وتظهر البدع والعقائد الفاسدة.

وعندما يترك القلب بدون تعاهد وإمداد إيماني فإنه سيصبح أسيراً للهوى تابعاً له.. كلما اشتهى فعل، وكلما رغب اندفع.. لا يالي بحلال أو حرام.. تبدل مشاعره وتقسو، فلا يكاد يتاثر بموعظة.

وعندما ترك النفس بدون تزكية، فستجد أمامها المجال مفتوحاً للفجور والطغيان وسوق صاحبها لفعل الفواحش والموبقات.

وعندما ترك حركة المرء وجهده البدني بدون توجيه فمن المتوقع أن يستهلكها في تحقيق شهواته ورغائبه دون ضوابط.

.. كل هذا سيؤدي إلى التخبط والضياع في الدنيا، والابتعاد عن الطريق المستقيم.. طريق العبودية لله عز وجل ومن ثم يكون الحسران - والعياذ بالله - في الآخرة. تأمل قوله - جل ثناؤه - وهو يصف حال أناس تركوا التركية والتربية الصحيحة، فتعطلت عقولهم، ومرضت نفوسهم وقلوهم، واتجهت حركاتهم ونشاطهم نحو الأرض والطين لتحصيل واستيفاء الشهوات: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِهُنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسَنَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ هَمَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ هَمَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ هَمَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [الأعراف: 179].

فالذي لا يستخدم هذه المكونات فيما خلقت من أجله - بل ويهدى بما يضرها - كمن يتعلم ما يضره **+ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ** [البقرة: 102]، ومن ثم فإن مرتبته تنحط لتصبح دون الأنعام، وكيف لا، والأنعام لم تكلف بما كلفنا به، ولم تعط من الإمكانيات مثل ما أعطينا " **أَمْ حَسِبَ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَيِّلًا**" [الفرقان: 44].

لذلك فإن من يهمل التربية الصحيحة فإنه ينحدر إلى أسفل، ويزداد هذا الانحدار كلما كانت تغذيته لعقله وقلبه ونفسه تغذية عكسية.. وهكذا حتى يصل إلى أسفل السافلين، ويصبح مثل الأنعام في الاهتمامات، ودونها في المرتبة **"إِنَّ شَرَ الدُّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"** [الأనفال: 55].

الحياة السعيدة:

من هنا نقول بأن إيماء العقل والقلب والنفس وتوجيه حركة الإنسان توجيهًا صحيحًا أمر بالغ الأهمية، والتكميل بينها ضروري لتكون الشمرة نضيحة، ومن ثم يتمتع المرء بالعافية في الدنيا، ويجاها حياة سعيدة حيث السلام الداخلي والطمأنينة والسكينة، ثم يستكمل هذه السعادة في قبره فيكون « روضة من رياض الجنة».

وب يوم القيمة "يَا عَبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَخْرُونَ" [الزخرف: 68]، ... وفي الجنة حيث النعيم المقيم، والسعادة التي لا تستطيع جميع مفردات اللغة أن تصافها، وكيف تصف ما لم تره؟! بل هي قياسات وتشبيهات، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله "وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا" [الإنسان: ..[20]

* * *

حاجة الأمة الماسة إلى التربية

أكرم الله عز وجل أمتنا واحتضنها برسالة الإسلام، وهذا فضل عظيم منه سبحانه على كل مسلم في هذه الأمة "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَقْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" [المائد़ة: 3].

.. هذه النعمة العظيمة تستوجب من أبناء الأمة أمررين عظيمين:

الأول: أن يقوموا بأداء تكاليف الرسالة في ذواتهم.

والثاني: أن يعملا على توصيل هذه الرسالة، وتبلغها للبشر في شتى أنحاء الأرض، وأن يبذلوا في ذلك غاية جهدهم، وأن يسعوا سعيا حثيثا لإيصالها إلى من يمكنهم الوصول إليه من الناس في مشارق الأرض ومغاربها حتى ينقذوا -بإذن الله- كل من بداخله خير وشوق إلى الهداية، وحتى لا يكون لأحد حجة أو ذريعة يتذرع بها لکفره أو شرکه بربه... فإذا ما كان يوم القيمة قام أبناء أمة الإسلام -في كل عصر- بالشهادة أمام الله عز وجل على أبناء عصرهم بمدى قبولهم أو رفضهم الإيمان بما تضمنته الرسالة.

الخير المخوب:

إن أغلب البشر فيهم خير مخبئ في كيونتهم لكنهم يحتاجون -فقط- إلى من يحسن مخاطبة هذا الخير، واستخراجه وإظهاره -بإذن الله-، والقليل منهم هم المجرمون الذين يغونها عوجا؛ تكيرا في أنفسهم، وحرضا على امتيازاتهم التي يضمنها لهم بقاوئهم على الكفر "وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِ تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبِرُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ" [الجاثية: 31].

ولعل في قصة موسى عليه السلام ما يؤكد ذلك، فكل من فرعون والسحرة قد شاهدوا العصابة تحول إلى حية عظيمة، فآمن السحرة ولم يؤمن فرعون، ليظهر الفارق في سبب الكفر وأوضاعه، فالسحرة قد منعهم الجهل من الإيمان بالله؛ لذلك عندما شاهدوا الآية العظيمة أذعنوا واستسلموا "قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾" [الشعراء: 47].

أما فرعون فكان سبب كفره هو إجرامه وكبره وحرصه على مصالحة "وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى" [طه: 56].

وعندما آمنت بلقيس -ملكة سبياً- بعد دعوة سليمان عليه السلام لها، ورؤيتها الآيات الباهرات، وكانت من قبل -هي وقومها- يعبدون الشمس؛ نجد أن القرآن يبين سبب كفرها أنها نشأت بين قوم كافرين، أي كانت جاهلة بالحقيقة لذلك عندما بلغتها الدعوة ورأرت الآيات آمنت: "وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ" [آل عمران: 43].

أهمية الجهاد:

... إذا كان الكثير من الناس ليسوا مجرمين، بل وفيهم خير مخبأ لكتفهم ضلوا الطريق الصحيح؛ فإن على أصحاب الرسالة أن يذلوا غاية جهدهم في توصيلها إليهم وإلى غيرهم فيكونوا سبباً في إنقاذهم من النار.

وليس معنى هذا أنه ليس على هؤلاء الجاهلين مسئولية في البحث عن الطريق الصحيح، فالمسئولية مشتركة بينهم وبين أصحاب الرسالة... عليهم أن يبحثوا عن الحق، وعلى أصحاب الرسالة أن يجتهدوا في توصيل الحق إليهم.. من هنا ندرك قيمة الجهاد في الإسلام والحكمة من كثرة الحث عليه في الكتاب والسنة، وفضيلته على كثير من الأعمال.. فجوهر الجهاد هو بذل الوعظ والطاقة في سبيل الله، وإقامة دينه، وتبلیغ دعوة الإسلام -دون إكراه- فيكون وسيلة لإنقاذ البشرية وإسعادها بالإسلام "وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَةً أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَائِكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" [الحج: 78].

إن الجهاد هو الوسيلة العظيمة لتبلیغ الدعوة وتوصیلها إلى الناس جميعاً، ومن خلال قیام المسلمين به يتم إنقاد الكثیرین من الضلال والنار "إِنِّي أَنْهِيُ عَنِ الْحَفَاظِ وَتَقْلِيلِ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" [التوبه: 41].

وعندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟

قال: «لا تستطیعونه»، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثة كل ذلك يقول: «لا تستطیعونه».

ثم قال: «مثُلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمْثُلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتَرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةً حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدَ»⁽¹⁾.

وغمي عن البيان أن للجهاد صوراً كثيرة يجمعها معنى «الجهاد» وهو: بذل الجهود في سبيل الله، تأمل قوله تعالى: "وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مَّا يَجْمِعُونَ" [آل عمران: 157]، فلقد جمع الله عز وجل في هذا الآية بين من يقتل في سبيل الله وبين من يموت دون قتال وهو في سبيل الله، وجعلهما مشتركين في الأجر.

إن توصیل رسالة الله عز وجل للبشر يحتاج إلى بذل حقيقي للجهاد وتضحية عظيمة بالغالي والنفيس، وصبر وثبات على المحن والعقبات التي تعرّض طریق توصیل الرسالة، فلا راحة للمسلمين حتى يكون الدين كله لله.

يقول الإمام حسن البنا: فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة حازمة لامناص منها ولا مفر

(1) رواه البخاري ومسلم.

معها، ورغم فيه أعظم الترغيب، وأجزل ثواب المُحَاجِدِين والشهداء، فلم يلحقهم في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم، ومن اقتدى بهم في جهادهم، ومنهم من الامتيازات الروحية والعملية في الدنيا والآخرة ما لم يمنح سواهم وتوعده المخالفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورميهم بأبشع النعوت والصفات ووجوههم على الجبن والقعود، ونعي عليهم الضعف والتخلُّف، وأعد لهم في الدنيا خزيًا لا يرفع إلا أن جاهدوا، وفي الآخرة عذابًا لا يفلتون منه ولو كان لهم مثل أحد ذهباً⁽¹⁾.

ماذا لو فرطنا؟!

إن اتفقت معـي - أخي القارئ - على ذلك، وقرأت آيات وأحاديثـ الجهـادـ منـ هـذاـ المنـظـورـ فـسـتـدـرـكـ -ـ كـمـاـ أـدـرـكـ -ـ مـدـىـ التـقـصـيرـ وـالتـفـرـيـطـ الـذـيـ وـقـعـتـ فـيـ الـأـمـةـ فـيـ حـقـ الـبـشـرـيـةـ بـتـخـلـيـهـاـ عـنـ هـذـاـ الـأـمـرـ الإـلـهـيـ،ـ وـخـيـانـتـهـاـ لـوـاحـبـ الـبـلـاغـ،ـ وـسـتـدـرـكـ كـذـلـكـ مـدـىـ خـطـورـةـ تـفـرـيـطـ الـأـمـةـ فـيـ التـطـبـيقـ الصـحـيـحـ للـرـسـالـةـ فـيـ ذـاـكـهـاـ لـأـنـ التـطـبـيقـ الصـحـيـحـ لـلـإـسـلـامـ يـسـعـدـ أـبـنـاءـهـ وـيـدـفـعـهـمـ لـبـذـلـ غـاـيـةـ الـجـهـدـ لـإـنـقـاذـ غـيـرـهـمـ.

فـإـنـ كـانـ الـأـمـرـ كـذـلـكـ؛ـ فـإـنـ تـفـرـيـطـ الـأـمـةـ فـيـ الـقـيـامـ بـمـذـنـبـيـنـ الـأـمـرـيـنـ:ـ (ـأـنـ تـمـثـلـ فـيـ ذـاـكـهـاـ الرـسـالـةـ،ـ وـأـنـ تـقـومـ بـتـبـليـغـهـاـ)ـ يـضـعـهـاـ فـيـ دـائـرـةـ الـعـتـابـ وـالـغـضـبـ الإـلـهـيـ،ـ وـكـيـفـ لـاـ وـهـيـ بـذـلـكـ قـدـ قـصـرـتـ فـيـ أـدـاءـ الـأـمـانـةـ الـتـيـ اـتـيـنـهـاـ اللـهـ عـلـيـهـاـ،ـ وـتـخـلـتـ عـنـ مـوـقـعـهـاـ الـرـيـاضـيـ لـلـبـشـرـيـةـ،ـ وـمـاـ يـنـتـجـ عـنـ ذـلـكـ مـنـ ضـيـاعـ الـكـثـيـرـيـنـ وـالـكـثـيـرـيـنـ حـيـنـ يـمـوتـونـ عـلـىـ الـكـفـرـ رـغـمـ مـاـ فـيـهـمـ مـنـ خـيـرـ مـخـبـوـءـ وـشـوقـ إـلـىـ الـهـداـيـةـ.

إن الخسارة التي تخسرها البشرية بتخلٍي أمّة الإسلام عن وظيفتها خسارة فادحة، فالآلاف - كل يوم - يموتون على الضلال والكفر، ولو أن الرسالة قد بلغتهم بطريقة صحيحة لآمن الكثير منهم.

ماذا نعاقب؟!

لعل ما قيل في الأسطر السابقة يجيب عن الأسئلة التي تتعدد على ألسنة المسلمين كلما ازداد حال الأمة سوءاً، وكلما تعالت هجمات أعدائهم عليها... فمن هذه الأسئلة: لماذا نعاقب بهذه العقوبات المتولدة؟! إلى متى الذل والهوان الذي تعيشه أمتنا منذ أمد بعيد؟ لماذا يتركنا الله هكذا نسام سوء العذاب من اليهود وغيرهم وهو سبحانه قادر بأن يكتف بأسهم عنا وينصرنا عليهم؟

إن الرؤية الإيمانية لهذه العقوبات لا بد وأن تنطلق من عدة أمور.

أولاً: أن هذا العقوبات تأتي بعلم الله وإذنه ومشيئته "وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىِ الْجَمْعَانِ فِيَأْذِنِ اللَّهِ" [آل عمران: 166]... "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلْوَهُ" [الأنعام: 112].

وثانيها: أن هذا العقوبات صورة من صور العتاب الإلهي للأمة لأنها تخلت عن رسالتها، ولم تعمل بما تضمنتها، وتركـتـ مـهـمـةـ تـوصـيـلـهـاـ وـإـبـلـاغـهـاـ لـلـبـشـرـ جـمـيـعـاـ.

(1) رسالة الجهاد من مجموع رسائل الإمام حسن البنا ص 421 - دار التوزيع والنشر الإسلامية - مصر.

"أَوْ لَمَّا أَصَابَتُكُمْ مُّصِيَّةٌ قَدْ أَصَبَّتُمْ مِّثْلَهَا فَلُتُمْ أَئِ هَذَا قُلْنُ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ" [آل عمران: 165]

وثالثها: أن هذه العقوبات تعد بمثابة وسيلة قوية لإيقاظ الأمة وإفاقتها من غفلتها، وإعادتها إلى رشدتها "وَأَخْدُنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" [الزخرف: 48].. قال صلى الله عليه وسلم: «إذا تباعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد: سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»⁽¹⁾.

إصلاح الداخل أولاً:

لا يمكن للأمة أن تؤدي أمانة البلاغ، ومن ثم الشهادة على الناس إلا إذا تثبتت في أبنائها معاني الرسالة؛ فيستمدون منها -بعون الله- القوى الروحية الدافعة للعمل والجهاد، ويستشعرون من خلال تطبيقها الصحيح معنى العزة بالله، فتفتضح عليهم السعادة في كيافهم، فينطلقون راشدين لتحقيق مراد ربهم بأن يكون الدين كله الله. وحين يهملون تطبيق الرسالة: تنحط اهتماماتهم، وينكمشون على ذاتهم، ويصبح جل تفكيرهم في كيفية تحصيل متطلبات الطين، وشهوات النفس.

من هنا نقول بأن نقطة البداية الصحيحة لرفع العقوبات عن الأمة، وتغيير ما حاصل بها ونزل بساحتها، هو إصلاحها من الداخل "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" [العد: 11]. فإن لم يحدث ذلك؛ فستظل العقوبات والمحن تتولى عليها، ولن يرفعها مجرد الدعاء أو المساعدات للمنكوبين -على أهميتها- بل لابد من دفع ضرورة التغيير الحقيقي.

وحتى لو هدمت المساجد، وقتل النساء والأطفال هنا وهناك فلن يُرفع البلاء إلا إذا سرنا في طريق التغيير "وَإِنْ عُدْتُمْ عُدُّنَا" [الإسراء: 8].

والتغيير المنشود يشمل كيان الإنسان بمحاوره الأربع:

أولاً: تغيير وإصلاح المفاهيم والتصورات في العقول، وإعادة بناء اليقين الصحيح فيها.

ثانياً: إصلاح الإيمان في القلوب وتقوية الإرادة.

ثالثاً: ترويض النفس وجهادها على لزوم الصدق والإخلاص لله عز وجل، مع نكران الذات والتواضع غير المصطنع.

رابعاً: التعود على بذل الجهد في سبيل الله.

وسائلي -بإذن الله- بيان ذلك كله بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة.

(1) صحيح، رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (423).

.. عندما تكتمل هذا الحلقات الأربع، سيحدث -بإذن الله- التغيير الحقيقي للفرد، ومن ثم الأمة.

والتغيير المطلوب ليس تغييراً لحظياً بل تغييراً يحدث أثراً إيجابياً دائمًا، وهذا يستلزم التربية الصحيحة لأفراد الأمة؛ هذا إن أردنا إصلاحاً حقيقياً.

ولنعلم جميعاً بأنه مهما أقيمت الدروس والمواعظ، ومهما نشرت المقالات، إلا أنها -مع أهميتها- لن يكون لها نفع حقيقي ودائم إلا إذ مورست من خلال منظومة تربوية تعني بإحداث أثر إيجابي دائم - وليس لحظياً- ينتج عنه ظهور المؤمن الصالح المصلح.

لا بديل عن التربية:

إن التغيير المنشود للأمة يستلزم تربية أفرادها تربية صحيحة متكاملة، والتربية تحتاج إلى استمرارية ممارسة معاني الإسلام من خلال جو تربوي يتم فيه المعايشة والتعاهد وبث الروح وضبط الفهم وتوجيه الجهد واستئناف المهم.. هكذا فعل محمد صلى الله عليه وسلم وهو يبني الأمة الجديدة... تأمل قوله تعالى وهو يخاطبه: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشِّيِّ بُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَأَبْيَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا" [الكهف: 28].

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يقوم على تربية أصحابه وتعاهدهم ودوام توجيههم وذلك في المرحلتين المكية والمدنية... ففي مكة كان يمارس ذلك من خلال تواجده المستمر بينهم، ولقاءه الدائم بهم في دار الأرقام بين أبي الأرقام عند الصفا، وفي المدينة استمر في التربية والتعليم من خلال المسجد، ومن خلال التواجد المستمر بين أصحابه ومعايشتهم ومتابعة أحوالهم "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَسْتُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّكِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" [آل عمران: 2].

... لابد إذن من أن يقوم الدعاة بالتواجد بين الناس ومارسة معاني الإسلام معهم حتى يتم التغيير المنشود، ولقد كان هذا هو دأب الرسل -عليهم الصلاة والسلام- .. تأمل قوله تعالى في قصة هود عليه السلام: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا تَجَيَّنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" [هود: 58].

وفي قصة شعيب عليه السلام: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبَتَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا" [الأعراف: 88].

وفي قصة موسى عليه السلام: "فَأَلْوَا افْتَلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ" [غافر: 25].

فالملاحظ في هذه الآيات قوله تعالى عن أتباع كل رسول : (الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)، ولم يقل: «آمنوا به»، فـ(مع) تعطي دلالة على المعية والصحبة والمعايشة، وـ(به) لا تعطي ذلك، وهذا يحمل في طياته بعض الدلالات على أن كل رسول الله كان يقوم على تربية من يؤمن بالدعوة ولا يكتفي بتعليمه فقط.

هل من الضروري تربية الأمة كلها؟!

لا بديل -إذن- عن التربية إن أردنا تغييرًا حقيقة، ومن ثم فإن على جميع الدعاة والعاملين للإسلام أن يكون هذا هو هدفهم الأساس حين يتعاملون مع الناس، وأن يوحدوا جهودهم ولا يعشروها في غير هذا المجال حتى تبدأ الأمة في اليقظة الحقيقة..

لابد وأن يكون عمل كل من يريد خدمة الإسلام من خلال التواجد بين الناس... يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون، وليس ذلك فحسب بل عليه أن يكون هدفه من تواجده بينهم هو التربية وإحداث أثر إيجابي دائم في ذواتهم من خلال المخاور الأربع للتربيـة.

إن المطلوب من خلال التواجد بين الناس ليس فقط مساعدة الفقراء، أو البحث عن عمل للعاطلين أو موسـاة المـبتـلين، أو الصلـح بين المـتـخاصـمين، أو افتتاح مـراكـز لـتحـفيـظ القرآن، أو عـقد النـدوـات، أو....، فـكـلـ هـذا مـعـ أهمـيـتهـ إلاـ أنهـ لاـ بدـ أنـ يـوـضـعـ فيـ سـيـاقـ المنـظـومـةـ التـرـبـويـةـ الـتـيـ تـهـدـيـ إـلـىـ التـغـيـيرـ الشـامـلـ وـالـدـائـمـ فيـ شـخـصـيـةـ الـمـسـلـمـ كـمـاـ أـسـلـفـنـاـ،ـ وـأـلـاـ يـتـمـ التـعـاـمـلـ مـعـهـاـ عـلـىـ أـنـهـ جـوـرـ مـعـزـلـةـ وـوـسـائـلـ منـفـصـلـةـ عـنـ بـعـضـهـاـ الـبعـضـ.

من هنا نقول بيقين: إن معركة الإصلاح والتغيير الحقيقي للأمة روحها التربية، ولابد أن يتم تطوير جميع الوسائل لخدمة هذا الأمر، فإن تركنا هذه المعركة فسنظل في أماكننا نراوح بين أقدامنا، ونشتكي من كثرة الحزن والابلاءات التي تمر بالأمة، وسيعلو صراحتنا ونجينا، وترتفع أيدينا بالدعاء والتضرع إلى الله كلما أصاب المسلمين جرح جديد، وسيعلو صوت الدعاة في الفضائيات وعلى المنابر بأهمية العودة إلى الله، وتغيير ما بالنفس، ثم تحدأ العاصفة ويستقر الجرح في جسد الأمة ويتعود على وجوده الجميع، ثم يتكرر الأمر بعد ذلك مع جرح جديد وهكذا...

فإن قلت: ولكن هل من الضروري تربية الأمة جميـعاـ؟!

ليس المطلوب أن يكون جميع الأفراد على مستوى عالٍ ورفع من الصلاح، فسيظل هناك السابق بالخيرات، والمقتضى، والظالم لنفسه، ولكن يبقى من الضروري توافر الحد الأدنى للصلاح في الأمة. فالمطلوب هو إصلاح المجتمع بأن تشيع فيه روح الإسلام ومعانـيهـ،ـ وأنـ تـغلـبـ عـلـيـهـ مـظـاهـرـ الـعـفـةـ والـتـراـحـمـ،ـ وـالـتـعـاـوـنـ عـلـىـ الـبـرـ وـالـتـقـوـىـ،ـ وـنـكـرـانـ الذـاتـ،ـ وـالـأـمـرـ بـالـمـعـرـوفـ وـالـنـهـيـ عـنـ الـمـنـكـرـ،ـ وـاستـشـعـارـ المسـؤـولـيـةـ تـجـاهـ الـأـمـةـ وـالـبـشـرـيـةـ،ـ وـفـيـ الـمـقـابـلـ تـخـتـفـيـ مـنـهـ مـظـاهـرـ السـلـبـيـةـ وـالـأـنـانـيـةـ وـالـإـعـجـابـ بـالـنـفـسـ وـالـتـفـسـخـ الـأـخـلـاقـيـ،ـ وـالـإـبـاحـيـةـ...ـ،ـ وـهـذـاـ لـنـ يـتـمـ إـلـاـ بـجـهـدـ تـرـبـويـ مـتـقـضـيـ بـيـذـلـهـ الدـعـاـةـ وـالـعـاـمـلـوـنـ لـلـإـسـلـامـ مـعـ النـاسـ...ـ كـلـ يـعـملـ فـيـ مـحـيـطـهـ.

الجمـرةـ المشـتعلـةـ:

لكي ينجح الدعاة والعاملون للإسلام وكل من يتوقف لخدمة الإسلام.. لكي ينجحوا جميـعاـ في تغيير وإصلاح الأمة لابد من أن يبدأوا مع أنفسهم فتتمثل فيهم معانـيـ الـإـسـلـامـ الـتـيـ يـرـيدـونـ أنـ يـرـبـوـنـ أـلـاـ يـرـبـوـنـ عـلـيـهـاـ.

إن الخطأ الشائع الذي يقع فيه بعض الدعاة هو مطالبة الناس بشيء لا يفعلونه هم مع أنفسهم، فتفقد كلماهم الروح والحرارة والتأثير في الآخرين.

لذلك فإن نقطة البداية الصحيحة ل التربية الأمة تتعلق من وجود الفرد المسلم المتوجه الذي تمثل فيه معاني الإسلام والحرقة على الدين، وبدون هذه البداية لا يمكن للعملية التربوية أن تنجح.

على سبيل المثال: لو أردنا إشعال مجموعة من الفحم فإننا -في الغالب- نقوم بإحضار فحمه مشتعلة ومتوجهة ونضعها وسط مجموعة الفحم، ثم نقوم بتحريك الماء عليهم جميعاً فينتقل الإشعاع والتوجه من الفحمة المتوجهة إلى بقية الفحم... فإن كان توجه الفحمة -الأساسية- متوسطاً كان الأثر على بقية الفحم محدوداً وضعيفاً، وإن كان التوجه ضعيفاً فمن المتوقع ألا نرى أثراً لتوجه في عموم الفحم، وقد تنطفئ الفحمة ذات التوجه الضعيف بمرور الوقت، فعلي قدر توجه الفحمة «الأساس» يكون الأثر على من حولها.

... من هنا يتضح لنا بأنه وإن كان تغيير الأمة تغييراً إيجابياً كما يحب ربنا ويرضي يستلزم تربية أفرادها على معاني الإسلام؛ فإن نجاح هذه التربية مرهون بوجود أفراد متوجهين بدأوا بأنفسهم وساروا بها في طريق التغيير، وقطعوا فيه شوطاً معتبراً حتى يستطيعوا -بعون الله- أن يأخذوا بأيدي الناس ويسيرون بهم في الطريق الذي سبقوهم بالسير فيه.

تبقي نقطةأخيرة في هذه المسألة وهي أن البعض قد يفهم من هذا الكلام أن تربية الناس على معاني الإسلام من خلال المحاور الأربع السابقة ذكرها (المعرفية -والإيمانية -والنفسية -والحركية) يستلزم تحقّقها بشكل كامل فيمن يريد ممارستها.

... لا شك أن الأفضل هو ذلك، ولكن لصعوبة تتحققه فيما يبقى الحد الأدنى لممارسة التربية مع الآخرين هو أن نريهم على ما تحقق فيما بصرة مرضية، وكلما استكملنا جديداً في أنفسنا قمنا بتربيتهم عليه، وبذلك يمكن أن يقوم بأمر تربية الأمة عدد كبير من الدعاة والعاملين للإسلام، وكل من يتوق إلى خدمة الدين.. فالفتى عليه أن يقوم بتربية الأطفال على ما تحقق فيه، والشاب يقوم بتربية الفتى على ما تمثل فيه، والرجل يقوم بذلك مع الشباب، والنساء مع الفتيات والأطفال وذلك في كل مكان يتيسر فيه المعايشة والتعاهد، ويأتي على رأس ذلك: المسجد فهو الحصن التربوي الأول الذي ينبغي أن يستفيد منه الجميع في إنجاح العملية التربوية بإذن الله.

فإن قلت: أريد تفصيلاً أكثر للمحاور الأربع التي سأقوم بتربية نفسى ومن حولى عليها.. كان الجواب: هذا مما مستضمنه الصفحات القادمة بميشئة الله.

المحول الأول

العقل والتربية (المعرفية)

خلق الله عز وجل الإنسان وأسكنه الأرض، وأتاح له حرية الاختيار، وطالبه بعبادته بالغيب " **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ**" [الذاريات: 56].

وجوهر العبادة هو استسلام العبد له سبحانه، وطاعة أوامره، ودوم الاستعانة به والتوكيل عليه في الأمور كلها، مع حبه وإjalله وتعظيمه وهبته وخشائه.

ولكن كيف يمارس الإنسان هذه الصورة من العبودية لله عز وجل وهو لا يراه؟

.. كيف يعظم أو يهاب أو يخشي أو يحب أو يطيع من لا يراه؟!

الإجابة عن هذه الأسئلة تتطرق من حقيقة مفادها أن الله عز وجل لا يطلب أحداً بشيء فوق وسعه " **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**" [البقرة: 286]، لذلك فقد هيأ للإنسان من الأسباب والإمكانات ما يعينه على أداء وظيفته كعبد له سبحانه، وذلك من خلال أمرين عظيمين.

الأمر الأول: أن الله عز وجل قد أودع في الكون المحيط بالإنسان -بل وفي الإنسان ذاته- الكثير والكثير من المعلومات التي تدل عليه.

الأمر الثاني: أنه -جل ثناؤه- قد أعطى للإنسان الوسيلة التي من خلالها يستطيع جمع تلك المعلومات عن ربه، ليتسنى له معرفته، ومن ثم عبادته.

الكل يعمل من أجلك

.. نعم، فكل ما تراه عيناك قد خلق من أجلك أيها الإنسان " **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**" [البقرة: 29].

هذه الجبال الشاهقة.. هذه البحار العظيمة.. هذه الأنهار.. الأشجار.. الدواب.. الحشرات.. الطيور.. الأسماك.. الحمادات.. الشمس.. القمر.. النجوم.. السماء.. الأرض... كل هذا مخلوق لك " **وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأنَّامِ**" [الرحمن: 10].

الكل مُستَحِلٌ لك ومخلوق من أجلك لكي تنجح في مهمة عبادة ربك بالغيب " **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ**" [الجاثية: 13].

فالأرض وما عليها، والسماء وما تحتها خلقت من أجلك.. من أجل تعريفك بربك؛ وتبسيير حياتك الدينية.

كل مخلوق في هذه الحياة قد أودع الله فيه بعض المعلومات عنه - سبحانه - فهذا يحمل معلومات عن الله العظيم، القوي، الجبار (كالجبال والبحار).

وهذا يحمل معلومات عن الله الرحيم، الكريم (كلماه والنبات).

وآخر يدل على أن الله عز وجل هو النافع الضار، الحافظ الرافع، القاپض الباسط (كالرياح والمطر والمرض...).

وهكذا تتتنوع المعلومات بتنوع المخلوقات:

فهذه الأنواع الكثيرة من المخلوقات التي تراها أو تسمع عنها لم تخلق عبّاً "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا يَعْيَنُ ◇ مَا خَلَقْنَا هُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ .." [الدخان: 38، 39].

فكل مخلوق له مهمة، وكل مخلوق يحمل رسالة تعريف بالله عز وجل..

من الملائكة إلى رسائل

تأمل سطور الكائنات

ألا كل شيء خلا الله باطل

وقد خط فيها لو تأملت

فضامتها يهدي ومن هو

تشير بإثبات الصفات

.. ولكن كيف يمكن للإنسان أن يحصل على هذه المعلومات؟!

من هنا ندرك أهم حكمة خلق «العقل».

الوسيلة المتفيدة

كلما ازدادت معرفة الإنسان بالشيء تغيرت معاملته له، «فالمعاملة على قدر المعرفة».

ولأن واجبات العبودية من حب وخشية وطاعة وتوكيل... ما هي إلا معاملات ينبغي أن يعامل بها العبد ربه؛ لذلك فإن نقطة البداية الصحيحة لتحقيق العبودية والتجلب بها هي «معرفة الله» عز وجل، وكلما تعرف المرء على ربه أكثر كلما عامله بصورة أفضل، وكلما جهل المرء ربه كلما ابتعدت معاملته له عن الصورة المطلوبة "وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقّ قَدْرِهِ" [الزمر: 67].

أخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ" [الإنفطار 6]. ثم قال: جهله⁽¹⁾.

فكثيراً ما ازدادت معرفة الإنسان بربه ازداد حبه لها، وافتقاره الدائم إليه، واعتماده عليه، واستسلامه المطلق له.

ولكي يعرف الإنسان ربه لابد وأن يجمع المعلومات عنه - سبحانه - والتي تحملها الكائنات التي تحيط

(1) أورده السيوطي في الدر المشور 6 / 534 - دار الكتب العلمية - بيروت.

به في كل مكان وزمان، وتحملها كذلك أحداث الحياة التي تمر به، بل إن الإنسان نفسه يحتوي على معلومات عن الله عز وجل لا توجد مجتمعة في مخلوق آخر " **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٤٦﴾ **أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**"

[الذاريات: 20، 21].

وكما قال الشاعر:

وَفِيكَ انطوى العالم
وَتَزَعَّمُ أَنْكَ حِرْمٌ صَغِيرٌ

ولقد منح الله عز وجل الإنسان الوسيلة التي من خلالها يستطيع أن يجمع المعلومات عنه سبحانه من جميع مخلوقاته، هذه الوسيلة هي العقل.

يقول الحسن البصري: «لما خلق الله عز وجل العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، وقال: ما خلقت خلقاً هو أحب إليَّ منك، إني بك أُعبد، وبك أُعرف، وبك آخذ، وبك أعطي»^(١).

فالعقل من أعظم مخلوقات الله عز وجل، وبه من الإمكانيات والملكات ما لا يمكن وصفه أو الإحاطة به، وإذا أردت أن تتأكد من ذلك فانظر إلى هذا الكون وما فيه من بلايين المخلوقات الكبيرة والصغيرة، وتذكر أنها جمِيعاً مخلوقة من أجلك، وتذكر كذلك أن الذي خلقها، قد طالبك بالنظر إليها، والتفكير فيها، والاستدلال من خلالها عليه سبحانه "أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ" [الأعراف: 185] فكيف لك أن تفعل ذلك إلا إذا كان الله عز وجل قد منحك الوسيلة التي تمكنتك من النجاح في هذا الأمر؟!

العرض المتحرك:

.. أنت -أيها الإنسان- محور هذا الكون.. الكل يدور حولك، ويعمل من أجلك وينتظر إشارتك..

.. إن هذا الكون يعد بمثابة شاشة عرض كبيرة ومتعددة، تعرض عروضها أمامك كل يوم وكل ليلة، وفي كل عرض تظهر لك مشاهد جديدة، وعواالم الجديدة، وأبطال جدد.

فالشمس والقمر يتحركان، والليل والنهار يتقلبان.. كل ذلك يحدث أمامك أيها الإنسان، وكأنه مسرح مكشوف أمام الجميع لينظروا إلى المخلوقات المختلفة الأشكال، والألوان، والحركات، والأصوات.. كلها تحف باسم الله، وكأنها تقول بلبسان حالمها:

لقد خلقنا من أجلك أيها الإنسان، فلا تتركت دون أن تنتفع بنا، وتعرف على ربك من خلالنا، وإن غفلت عنا اليوم فستنمر عليك غداً، وبعد الغد، وكل يوم حتى تنتبه وتنتفع بنا، ولكن احذر أن تغفل عنا

(1) شعب الإيمان للبيهقي برقم (4632) – دار الكتب العلمية – بيروت.

طويلا، فالعرض الذي نقدمه لك كل يوم وليلة قد ينتهي بمحرد موتك وفي أي لحظة، فبادر واعتني الفرصة.. ألم يقل لك ربك: " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**" [الفرقان: 62].

هيا أبصر واعتبر:

ربك يحرك الكون كله من أجلك.. تغير المشاهد، ويتغير الأبطال لكي لا تمل، ولكي تستمر في الإبصار والاعتبار " **يُقَبِّلُ اللَّهُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنِّي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ الْأَبْصَارِ**" [النور: 44]، فأطلق بصرك إلى الأمام وانظر في ملوك السماوات والأرض، وكفى نظراً إلى أسفل قدميك، فلم تخلق للطين، بل خلقت لأمر عظيم آخره الخلود والنعيم " **أَفَمَنْ يَمْسِي مُكَبَّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْسِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**" [المulk: 22].

إنك - كما يقول محمد إقبال - غاية وجود هذا الكون، ولأجلك خلق الله هذا العالم، وأبرزه إلى الوجود⁽¹⁾.

إن هذا الكون، الذي يتركب من لون وصوت، والذي تسرح فيه العين، وتتمتع فيه الأذن... إنه ليس وكرك الذي تستريح فيه، والغاية التي تنتهي إليها.

إن هنالك عالم وأكواناً لم تقع عليها عين بعد.. إن هذه العوالم متشوقة لهجومك، وغارتاك، وزحفك.. متشوقة لأبكار أفكار، وبدائع أعمالك.. إن هذا العالم يدور دورته لتكتشف عليك نفسك وحقيقة نفسيتك⁽²⁾.

.. لا تسفه نفسك فأنت (فاتح هذا العالم، ويعجز البيان عن وصفك، وتعجز الملائكة عن مرافقتك، وعن خايتها)⁽³⁾.

واعلم أنه (لا حياة لك ولا قوام، ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه المعرفة، فإذا ملكتها ملكت العالم، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المtau)⁽⁴⁾.

إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية، أو الأجرام الفلكية، راحل زائل، وغائب آفل.. أنت - أيها الإنسان المسلم - بطل المعركة، وقائد الجيش، وكل ما حولك من سافل وعال، وريخيص وغال، من جنودك وأتباعك⁽⁵⁾.

(1) رواية إقبال ص 122 - لأبي الحسن الندوبي - دار القلم.

(2) المصدر السابق ص 139.

(3) المصدر السابق: ص 140.

(4) المصدر السابق: ص 92.

(5) المصدر السابق: ص 93.

الذنب الأكبر:

إذن فالحكمة العظمى من خلق العقل هو استخدامه في التعرف على الله عز وجل من خلال التفكير في مخلوقاته والتعرف على ما تحمله من معلومات عنه -سبحانه- " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَحْجُرُ فِي الْبَحْرِ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَاهُ بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْهِكَاهُ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَائِيٍّ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [البقرة: 164].

وكثيراً ما يذكر القرآن بأهمية استخدام العقل في التفكير والاعتبار لفهم آيات الله المبثوثة في كونه: " وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّنَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" [النحل: 12].

وحين يُعطل المرء عقله، ولا يستخدمه فيما خلق من أجله فقد سُفِه نفسه، وظلمها ظلماً عظيماً لأنَّه بذلك قد سار بها إلى الماوية.. تأمل معى حال أهل النار -والعياذ بالله- وهم يتذكرون أسباب هلاكهم وضياعهم " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقَلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 10].. والملاحظ أنَّهم لم يذكروا كفرهم أو شركهم أو معاصيهم وهم يؤثثون أنفسهم على ما وصلوا إليه، بل ذكروا تعطيلهم لعقولهم عن الاستخدام الصحيح.

.. نعم، لو استخدمو عقولهم وتفكروا في آيات الله المرئية في كونه، والمقرؤة في رسالته، لتعرفوا على رهم، ومن ثم لا يطاعوه ويعبدوه ولما كفروا ولما أشركوا، ومن ثم لما دخلوا النار، لذلك كان التعقيب الإلهي على اعترافهم بالحقيقة +فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُخْنًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ" [الملك: 11].

.. بالفعل: إن ذنبهم الأكبر هو هذا الذنب، وما الكفر، وما الشرك، وما الكبر، إلا توابع لتعطيل العقل، فالذي يعطل هذه النعمة العظيمة فإنما يحرم نفسه من خير عظيم كان في متناول يده، ومن ثم تنحط مرتبته، ويهبط حتى يصبح "أَسْفَلَ سَافِلِينَ" [الاتين: 5].

"أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَيِّلًا" [الفرقان: 44].

وصدق عباس العقاد حين قال: «التفكير فريضة إسلامية».

العلم الحقيقى:

إن كان العقل هو محل العلم والمعرفة، فإن العلم الحقيقى الذى ينبغي أن يشغل العبد بتحصيله هو العلم بالله عز وجل، وكيف لا ومن خالله تتحقق العبودية الحقة له سبحانه، لذلك قال بعض المفسرين في قوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْدُونَ" [الذاريات: 56] أي: إلا ليعرفون.

لماذا؟!

لأنهم إذا عرفوه: أحبوه، وعظموه، وهابوه، وأطاعوه، وتوكلا عليه... .

جاء في الأثر أن موسى عليه السلام سأله ربه فقال: يا رب، أي عبادك أخشى لك؟

قال: أعلمهم بي⁽¹⁾.

.. إذن فتحصيل العلم بالله هو أهم غاية لخلق العقل، وأي علم آخر فينبغي أن يكون تابعاً له، وفرغاً منه.. لم يقل سبحانه "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" [محمد: 19].

فلكي يدرك المرء حقيقة التوحيد، ويوقن بها فإنه يحتاج إلى التعرف على ربه من خلال آياته الدالة عليه "سُنُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكُفِّرْ بِرِبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [فصلت: 53].

لذلك نجد جواب موسى عليه السلام عندما سأله فرعون عن الله، أنه ذكر بعضًا من المعلومات عنه -سبحانه- من خلال آثار اسمائه وصفاته المتجلية في مخلوقاته "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَرْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا وَارْعُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الَّتِي" [طه: 49-54] وفي هذا المعنى يقول الحافظ ابن رجب:

أخبر سبحانه أنه ما خلق السماوات والأرض إلا لنعلم بذلك قدرته وعلمه، فيكون دليلاً على معرفته ومعرفة صفاته، كما قال تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بِيَنْهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا" [الطلاق: 12].

وآخر أنه إنما يخشاه من عباده العلماء، وهم العلماء «به».

قال ابن عباس في قوله: "إِنَّمَا يَخْشَىَ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر: 28].

قال: أي إنما يخافني من عبادي من عرف جلاي وكريائي وعظمتي.

فأفضل العلم العلم بالله، وهو العلم بأسمائه وصفاته، وأفعاله التي توجب لصاحبها معرفة الله وخشيته ومحبته وهبته وإحلاله وعظمته، والتبتل إليه، والتوكيل عليه، والرضا عنه، والاشتغال به دون خلقه.

ويتبع ذلك العلم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك، والعلم بأوامر الله ونواهيه وشرائعه وأحكامه، وما يحبه من عباده من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة، وما يكرهه من عباده من الأقوال

والأعمال الظاهرة والباطنة⁽¹⁾.

العلم النافع:

من هنا يتأكد لدينا أن العلم النافع هو الذي يؤدي إلى تحقيق التوحيد قوله وعملاً، أو بمعنى آخر: هو الذي يؤدي إلى تحسين المعاملة مع الله عز وجل فيزداد المرء له حشية وطاعة ومحبة وإنابة واستقامة على صراطه المستقيم، فإن لم يؤدّي العلم الذي يتعلمه المرء إلى ذلك صار علمًا غير نافع.

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «أعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع»، وفي حديث آخر قال: «سلوا الله علمًا نافعًا، وتعودوا بالله من علم لا ينفع»⁽²⁾، وهذا يدل - كما يقول ابن رجب - على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع في القلب فهو علم غير نافع⁽³⁾.

ويقول سفيان الثوري: إنما فضل العلم لأنّه يُتقّى الله به، وإنّما كان كسائر الأشياء.

وكان الإمام أحمد يقول: أصل العلم خشية الله، وقال كثير من السلف: ليس العلم كثرة الرواية وإنما العلم الخشية⁽⁴⁾.

وفي حكم ابن عطاء: «العلم إن فارنته الخشية فلك، وإنّما فعليك».

وعندما سُئل الإمام أحمد عن معروف الكرخي، وقيل له: هل كان معه علم؟ فقال: كان معه أصل العلم، خشية الله عز وجل⁽⁵⁾.

ومن الملاحظ أن كلمة العلم في القرآن كثيراً ما تدور حول هذا المعنى كقوله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ" [فاطر: 28].

وقوله: "أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْدُرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" [الإمر: 9].

غاية العلم:

لكي ندرك أكثر وأكثر غاية العلم علينا أن نتذكر غاية وجود الإنسان على الأرض والتي تمثل في تحقيق العبودية الحقة لله عز وجل وما تشمله من معان مختلفة يقف على رأسها: طاعته سبحانه،

(1) مجموع رسائل ابن رجب 1/40، 41 – الفاروق الخديبة للطباعة والنشر – القاهرة.

(2) صحيح الجامع الصغير (3635).

(3) شرح حديث أبي الدرداء (من سلك طريقاً يلتمس فيه علمًا) لابن رجب الحنبلي.

(4) المصدر السابق.

(5) مجموع رسائل ابن رجب 2/787.

وخشيه، ومحبته، والشوق إلى لقائه، والأنس به، ودوم الإنابة إليه، والاستسلام له، والاستعاة به، والتضحية من أجله، وإقرار شرعه.

ولأن هذه المعاني لا يمكن تحقيقها إلا من خلال المرور من باب «المعرفة» بالله عز وجل - كما أسلفنا - كانت غاية العلم هي: «التعرف على الحقائق التي تصل بالمرء إلى تحقيق العبودية لله عز وجل بمعانها المختلفة».

بحذا ندرك مفهوم العلم النافع ومدى ارتباطه بتحسين المعاملة مع الله عز وجل، وبهذا المفهوم - أيضاً - يمكننا التعرف على مدى قُرب أو بعد العلوم المختلفة من العلم النافع، مع الأخذ في الاعتبار أن معرفة الأحكام الشرعية، وما يرضي الله عز وجل وما يغضبه من الأهمية بمكانته، وهي تختل المرتبة التالية للعلم بالله عز وجل وأياته وأفعاله في خلقه، وذلك لضرورتها في تحقيق العبودية الحقة له سبحانه، فالذى امتلاه قلبه خشية الله عز وجل يحتاج أن يعرف ما الذي يرضي ربه فيفعله، وما الذي يغضبه فيتجنبه. لذلك فإن من جمع العِلمين (العلم بالله، والعلم بأحكامه) فقد حاز قصب السبق في ركب العلماء، ويلي ذلك العلم بالله دون العلم بجميع أحكامه، أما الصنف الثالث والذي يتمثل فيما يعلم الأحكام وليس لديه علم حقيقي بالله، فهذا الصنف مذموم لأنه قد يطّلع لهذا العلم في اتجاه هواه وكل ما يجعله محل رضى الناس فيكون ذلك سبباً في هلاكه والعياذ بالله.

قال سفيان الثوري: «كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشي الله وليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشي الله فذلك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشي الله فذلك العالم الفاجر»⁽¹⁾.

الباب الأعظم:

من هنا نقول أن العلم الحقيقي الذي ينبغي أن ينشغل به العقل - أول ما يشغل - هو العلم بالله عز وجل، وأن أي علم آخر ينبغي أن يكون تالياً له، منطلاقاً منه.

إن علم التوحيد الحقيقي هو «الباب الأعظم» الذي ينبغي أن ندخل منه جيئاً، وبعد ذلك ندخل إلى العلوم المختلفة حتى نتمكن من الاستفادة الحقيقة منها في تحقيق العبودية لله عز وجل، فإن لم يحدث هذا، وبدأ المرء في تعلم العلوم المختلفة متراجعاً العلم بالله عز وجل فإن مقصود هذه العلوم لن يتحقق بالصورة المطلوبة.

فعلى سبيل المثال: عندما يتعلم المرء العلوم الكونية قبل تعلمه العلم بالله عز وجل فإنه لن يستطيع - بتلقائية - أن يربطها بالله عز وجل، ومن ثم لن تزيد معرفة به سبحانه، وإن تكلف ذلك.

(1) أخرجه الدارمي (367) المقدمة.

أما إذا تعلمها بعد دخوله من «الباب الأعظم» للعلم فإنه سيستفيد بها استفادة عظيمة في الاستدلال على الله عز وجل وأسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة عليه، فيزداد بهذه العلوم معرفة بربه ومن ثم خشيته وهذا ما يؤكد قوله تعالى: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا لَّوْا نَّهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيَضْ وَحُمُرٌ مُّخْتَلِفُ لَوْا نَّهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ◆ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ لَوْا نَّهَا كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر: 27، 28].

وما ينطبق على العلوم الكونية ينطبق على العلوم الأخرى، فالعلم بالتاريخ علم مهم ولكن ينبغي أن يكون تاليًا ومنطلقاً من العلم بالله عز وجل، فنرى من خلاله أفعاله سبحانه، وسنثني في خلقه عبر الحقب والأزمنة السابقة فيزداد تعزفنا عليه، وخشيتنا له، وتعلقنا به.

العقل المُعطل:

خلصنا مما سبق إلى أن وظيفة العقل الأولى هي التعرف على الله عز وجل، لذلك فإن المطلوب من المسلم دوماً أن يقوم بتنمية عقله، وتوسيع مداركه، وفتح نوافذه لتحصيل هذه المعرفة.

إن العقل البشري به كم هائل من النوافذ والخلايا التي تقوم باستقبال وتخزين المعلومات، ويكتفي أن تعرف أن بعض الأبحاث العلمية أثبتت أن عدد خلايا المخ يصل إلى ما يقارب 200 مليون حليه.. هذه الخلايا لديها من الكفاءة ما يمكنها - بإذن الله - من تخزين حوالي 100 مليون معلومة، وأن أقصى ما يستخدمه الإنسان من هذه الكفاءة لم يتجاوز العشرة بالمائة (10%). والسبب الرئيس في ذلك هو ابعاده عن أداء الوظيفة التي خلق من أجلها، والتي تستلزم منه التفكير فيما يراه من أحداث، وما يتجدد من مشاهد لمحЛОقات متنوعة، وأحداث متقلبة، والاستدلال من خلال هذا التفكير على صفات خالقه.

ومهما نجح الإنسان في اكتشاف الجديد، ومهما استخدم عقله في الاحتراعات المبهرة النافعة إلا أن هذا كله - مع أهميته وضرورته- لا يستهلك سوى قدر محدود من إمكانات العقل، في حين تظل أغلب نوافذ هذا العقل مغلقة، لأنه - في الأساس - قد خلق لوظيفة عظيمة تستلزم منه أن يُطل على العالم المختلفة المحيط به، وعلى ذاته التي تحتوي على صورة مصغرة من كتاب الكون، فيتعرف من خلالها على ربه.

من هذا التصور لوظيفة العقل الأولى ندرك أن الاهتمامات العلمية في العصور الأخيرة للبشرية - مع أهمية الكثير منها في نفع حياة الإنسان «الطينية» - تنحصر في قشرة صغيرة، وسطور قليلة من كتاب الكون العظيم، وصدق الله العظيم "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ◆ أَوَ مَيَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُّسَمٌّ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءَ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ" [الروم: 7، 8].

فلىنتبه قبل فوات الأوان:

فإن كان الأمر كذلك، وإن استمرت غفلتنا عن حقيقة وجودنا، وعن أهمية استخدام العقل في الاتجاه الصحيح، فمن المتوقع أن مشاعر الحسنة والنندم ستتملّكنا عند الموت، وبعد انكشاف الغطاء الذي يفصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة.. سيشتت الندم على تضييع العمر وعدم الانتفاع بالعقل في الوصول إلى معرفة الله عز وجل "لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ" [ق: 22].

ويكشفك تأكيداً لهذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآيات: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَلْيَابِ" [آل عمران: 190]: «وَيُلَمَّ مَنْ قَرَا هَذِهِ الْآيَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَا»⁽¹⁾.

ولعل المثال التالي يقرب لنا المعنى أكثر وأكثر:

لو أن رجلاً سافر إلى مكان ما للنزهة والاستجمام، وأقام في حجرة بأجمل فندق في هذا المكان.. هذه الحجرة تطل على مناظر ساحرة خلابة ما بين نهر جار، وحدائق غناء، ومناظر مبهجة تحظى بالأبصار...، وكل جهة من جهاتها بها عدد كبير من النوافذ المغلقة والممعطرة بالستير، فما كان من هذا الرجل إلا أن سأله عن النافذة التي تطل على مدخل الفندق، والساحة الخديطة به حيث تقبع سيارته، وظل طيلة وجوده ينظر من هذه النافذة فقط ويراقب حركة القادمين والمغادرين، ويطمئن على سيارته، وبعد انتهاء مدة إقامته، وبينما هو يغادر الفندق إذا به يلتقي بصديق له كان يقيم في نفس المكان، وإذا بحالة من الانبهار تسيطر على هذا الصديق والتي ترجمتها كثرة حديثه لصاحبنا عن المناظر الخلابة التي رآها، وأشعة الشمس وهي تعانق مع صفحة الماء، وألوان الأزهار التي تسر الناظرين و...، ويستمر حديث الصديق وصاحبنا يقف مذهولاً، فهو لم ير أي شيء من هذا لأنّه لم يحاول فتح النوافذ التي تمتليء بها حجرته، وأكتفى بفتح واحدة منها لم تنقل له عشر معشار ما رأه صديقه!!

.. بلا شك ستتملّك صاحبنا مشاعر الحسنة والنندم على ما فاته من متّعة، وسيظل يقول في نفسه: يا ليتني حاولت فتح النوافذ الأخرى، يا حسرتي على الإجازة التي لم أستفد بها إلا يسيراً.

.. هذا الحسنة لا ترقى بأي حال من الأحوال إلى جانب حسنة من ينشغل طيلة حياته بطين الأرض، ويستخدم جزءاً يسيراً من عقله للحفاظ على حياته الطينية دون أن يحاول فتح نوافذه ليطرد من خالماها على العالم الكبير الذي خلق لأجله.

(1) رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحهما.

فضيلة التفكير:

من هنا ندرك أهمية التفكير، وكيف أنه عبادة عظيمة ينبغي علينا أن نمارسها باستمرار لفتح من خلاطنا نوافذ العقل، فنردد مساحة الرؤية، وتنسج تبعاً لها درجة المعرفة بالله عز وجل.. قال صلى الله عليه وسلم: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»⁽¹⁾.

وقال الحسن البصري: تفكير ساعة خير من قيام ليلة.

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

ففي كل شيء له عبرة
إذ المرء كانت له

فالتفكير لا يترك المسلم (مسارح النظر ترقد ولا تكري إلا وهو يقظان الفكر.. خار يحول، وليل ينزل، وشمس تحرى، وقمر يسري، وسحاب مكهر، وبحر مستطر، ووالد يتلف وولد يخلف، ما خلق الله هذا باطلا، وإن بعد ذلك ثواباً وعقاباً)⁽²⁾.

علم اليقين:

ليس المقصد من تحصيل العلم بالله عز وجل هو المعرفة العابرة التي تختلط بالمعرفات المختلفة ولا تشكل يقين الإنسان، بل المقصد معرفة ترسخ في العقل الباطن، وتشكل اليقين، فتتدخل وتتشابك وتصوغ تصوراته ومفاهيمه، فيصبح صاحبها من الراسخين في العلم بالله عز وجل "والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا" [آل عمران: 7].

ولكي نصل إلى هذه الدرجة لابد من كثرة عرض المعلومات عن الله عز وجل على العقل بأساليب مختلفة حتى لا يألفها فتنتقل تلك المعلومات من منطقة الشعور إلى منطقة اللاشعور أو (العقل الباطن)، ومن ثم تشكل بموروث الوقت جزءاً من اليقين⁽³⁾.

(1) صحيح الجامع الصغير (3976).

(2) فيض القدير للمناوي /3 347 – دار الكتب العلمية- بيروت.

(3) أي معلومة يتلقاها الإنسان من خلال سمعه أو بصره أو حواسه المختلفة تذهب إلى جزء في العقل يسمى (العقل المدرك) أو (الشعور)، فإذا قبلتها العقل المدرك انتقلت إلى الجزء الآخر من العقل وهو (الغير مدرك) أو (اللاشعور)، والذي يشكل منطقة العلم الراسخ، أو اليقين، أو المعتقدات، سواء كانت صحيحة أو فاسدة، ولكن يستقر مدلول المعلومة في منطقة اللاشعور لابد من تكرار موروثها على العقل المدرك مرات ومرات فيمررها إلى (اللاشعور) حتى تستقر فيه.. مثال: تعلم قيادة السيارة: في البداية يتم تحصيل المعلومات بالعقل المدرك، واستخدامها به كذلك وهذا يظهر من خلال تكثير السائق الشديد في القيادة وعدم التجاوب مع أي أحداث تحدث حوله، وبعد تكرار وتمرير معلومات القيادة إلى العقل غير المدرك يحدث استقرار مدلولها فيه، ومن ثم يمكن للسائق أن يقود السيارة بلا تفكير، بل إنه يمكنه الحديث مع من حوله وهو يقود السيارة، ومثال آخر: تعلم أحكام التجويد وممارستها: في البداية يكون بالعقل المدرك وبعد ذلك يكون بالعقل غير المدرك، وينطق القارئ الآيات بترتيل دون تفكير في مواضع أحكام التجويد.

مستهدف التربية المعرفية:

بعد أن تعرفنا على الوظيفة الأساسية للعقل، والحكمة من خلقه يمكننا القول بأن هدف التربية المعرفية هو: إماء العقل وتوسيع مداركه، وفتح نوافذه، وإكسابه التلقائية في التفكير في كل شيء يحدث حوله والاعتبار به، والتعرف من خلاله على الله عز وجل وعلى حتمية العودة إليه " أَوْلَمْ يَنْتَرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ افْتَرَبَ أَجَلُهُمْ " [الأعراف: 185].

أو بعبارة أخرى:

المطلوب من المسلم إماء عقله من خلال تحصيل العلم الراسخ النافع بالله عز وجل والذي يؤدي إلى تحسين المعاملة معه -سبحانه-، وأي علم آخر يريد أن يتعلمها الإنسان ينبغي أن يتم الدخول إليه من هذا الباب .. «باب التوحيد» "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" [محمد: 19].

* * *

المحور الثاني

القلب والتربيـة الإيمانية

يحكـي أحد الأصدقاء أنه في يوم من الأيام استقل سـيارة (أجرة)، وفي الطريق بدأ يتجاذب أطراف الحديث مع سائقها الشاب، وتطرق حديثه معه عن الصلاة ثم سـأله: هل توازنـت على أداء الصلاة؟! فكـانت إجـابةـه بالنـفي، وما إن بدأ صاحـبـنا يـحـدـثـهـ عنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـعـنـ نـعـمـهـ المـتوـالـيـةـ عـلـيـنـاـ وـأـنـ شـكـرـ هذهـ النـعـمـ يـسـتـوـجـبـ طـاعـتـهـ وـ...ـ،ـ إـذـاـ بـالـسـائـقـ يـقـاطـعـهـ بـحـدـيـثـ عـظـيمـ عـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ وـعـنـمـهـ السـابـغـةـ،ـ وـقـيـومـيـتـهـ،ـ وـحـفـظـهـ،ـ وـأـنـ لـوـلـاـ اللهـ مـاـ أـبـصـرـ أوـ سـمعـ أوـ تـكـلمـ أوـ تـحـركـ...ـ،ـ وـاسـتـمـرـ السـائـقـ فـيـ حـدـيـثـهـ عـنـ اللهـ حـتـىـ وـصـلـ صـاحـبـنـاـ إـلـىـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـرـيدـهـ،ـ وـهـبـطـ مـنـ السـيـارـةـ وـهـوـ يـسـأـلـ نـفـسـهـ:ـ إـنـ كـانـ هـذـاـ الرـجـلـ يـعـرـفـ عـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ كـلـ هـذـهـ الـمـعـرـفـةـ فـلـمـاـذـاـ لـمـ يـنـعـكـسـ أـثـرـ هـذـهـ الـمـعـرـفـةـ عـلـىـ سـلـوكـهـ فـيـطـيـعـ رـبـهـ وـيـحـافظـ عـلـىـ أـدـاءـ الصـلـادـةـ؟ـ!

الإجـابةـ عنـ هـذـاـ السـؤـالـ تـسـتـدـعـيـ التـعـرـفـ عـلـىـ الـفـارـقـ بـيـنـ الـعـقـلـ وـالـقـلـبـ..ـ

مركز الإرادة:

لوـكـانـ العـقـلـ هوـ الـذـيـ يـحـرـكـ الـإـنـسـانـ،ـ لـكـانـ الـمـعـرـفـةـ الـعـقـلـيـةـ وـحـدـهـ تـكـفـيـ كـدـافـعـ للـسـلـوكـ إـلـاـ أنـ الـأـمـرـ لـيـسـ كـذـلـكـ،ـ فـمـعـ أـهـمـيـةـ الـمـعـرـفـةـ وـضـرـورـتـهـ كـبـوـابـةـ أـسـاسـيـةـ لـتـحـقـيقـ الـعـبـودـيـةـ وـمـنـ ثـمـ الـاستـقـامـةـ؛ـ إـلـاـ أـنـهـ لـاـ تـكـفـيـ لـتـغـيـيرـ السـلـوكـ..ـ لـمـاـذـ؟ـ!

لـأـنـ الـذـيـ يـصـدـرـ الـأـوـامـرـ بـالـحـرـكـةـ الـإـرـادـيـةـ دـاـخـلـ الـإـنـسـانـ هوـ القـلـبـ وـلـيـسـ الـعـقـلـ.

فالـقـلـبـ يـعـدـ بـمـثـابـةـ مـرـكـزـ الـإـرـادـةـ وـاتـخـادـ الـقـرـارـ،ـ وـمـنـهـ تـنـطـلـقـ الـأـوـامـرـ بـالـأـفـعـالـ الـإـرـادـيـةـ وـمـاـ عـلـىـ الـجـمـيعـ إـلـاـ التـنـفـيـذـ..ـ قـالـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ:ـ «ـأـلـاـ إـنـ فـيـ الـجـسـدـ مـضـغـةـ إـذـاـ صـلـحـتـ صـلـحـ الـجـسـدـ كـلـهـ وـإـذـاـ فـسـدـ فـسـدـ الـجـسـدـ كـلـهـ إـلـاـ وـهـيـ الـقـلـبـ»ـ⁽¹⁾.

..ـ هـذـاـ الـقـلـبـ تـتـجـاذـبـهـ قـوـتـانـ:ـ «ـقـوـةـ الـمـوـىـ»ـ وـمـاـ تـمـيلـ إـلـيـهـ الـنـفـسـ وـتـشـتـهـيـ،ـ وـقـوـةـ «ـالـإـيمـانـ»ـ (أـوـ التـصـدـيقـ وـالـاطـمـئـنـانـ)ـ بـمـاـ فـيـ الـعـقـلـ مـنـ أـفـكـارـ وـقـنـاعـاتـ،ـ وـأـلـقـوـيـ مـنـهـمـاـ وـقـتـ اـتـخـادـ الـقـرـارـ هوـ الـذـيـ يـسـتـولـيـ عـلـىـ الـإـرـادـةـ،ـ وـيـوجـهـ الـقـرـارـ لـصـالـحـهـ.

فـعـنـدـمـاـ يـسـمـعـ الـمـسـلـمـ أـذـانـ الـفـجـرـ وـيـرـيدـ أـنـ يـنـهـضـ مـنـ نـوـمـهـ لـلـصـلـادـةـ فـإـنـ صـرـاعـاـ يـنـشـبـ دـاـخـلـهـ،ـ بـيـنـ إـيمـانـهـ بـأـهـمـيـةـ ضـرـورـةـ الـقـيـامـ لـصـلـادـةـ الـفـجـرـ وـبـيـنـ هـوـيـ نـفـسـهـ وـحـبـهـ لـلـرـاحـةـ وـالـنـوـمـ وـعـدـمـ التـعـرـضـ لـلـمـشـقـةـ،ـ فـإـنـ استـيقـظـ فـإـنـاـ أـيـقـظـهـ إـيمـانـهـ الـذـيـ كـانـ أـقـوىـ مـنـ الـمـوـىـ فـيـ هـذـهـ الـلـحـظـةـ،ـ وـإـنـ نـامـ فـإـنـاـ أـنـامـهـ هـوـاـ الـذـيـ كـانـ

(1) مـتـفـقـ عـلـيـهـ.

أقوى من إيمانه في هذه اللحظة.

وعندما تقع عين المسلم على وجه امرأة أجنبية عنه، فعليه أن يغض بصره، فإن لم يفعل، فذلك معناه أن هو نفسه في إطلاق البصر والنظر إلى المرأة في هذه اللحظة كان أقوى من إيمانه بالله، وضرورة طاعة أوامره بغض البصر.

* * فالإيمان هو الدافع للسلوك الإيجابي " وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ " [الحج: 32].

* * والهوى هو الدافع للسلوك السليبي " فَإِنْ لَمْ يَسْتَحِبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ " [القصص: 50].

معنى ذلك أنه إن لم يحدث للمعارف والقناعات الموجودة بالعقل اطمئنان وتصديق قلبي بالقدر الذي يقاوم الهوى المضاد لهذه القناعات ويتنصر عليه؛ فإن هذه القناعات لن تترجم إلى سلوك عملي، ومن ثم يصبح كلام المرء وقناعاته في جانب، وسلوكه في جانب آخر.

فلا يكفي المرء اقتناعه بالفكرة لكي يمارس مقتضاها في واقعه العملي، بل لا بد من تحويل هذه الفكرة إلى إيمان عميق في القلب يتنصر على الهوى.

ولا يكفي كذلك وجود إيمان بالفكرة في القلب لكي يشمل السلوك المترجم لها، بل لا بد وأن يكون الإيمان أقوى من الهوى المضاد لهذه الفكرة حتى يستطيع الانتصار عليه وقت اتخاذ القرار.

فعلى سبيل المثال: لكي يصبح الإنفاق في سبيل الله سلوكًا دائمًا للعبد؛ لا بد من تمكن الإيمان والتصديق والاطمئنان القلبي بأهميته، وفضله حتى يستطيع المرء -بإذن الله- مواجهة قوة هواه الشديدة لحب المال والحرص عليه والشح به.

مع الأخذ في الاعتبار ضرورة التغذية الدائمة لهذا الإيمان حتى يتمكن المسلم من المقاومة المستمرة لهوى نفسه وشحها.

المعرفة وحدها لا تكفي:

المعرفة العقلية -إذن- لا تكفي لحدوث الاستقامة والقيام بواجبات العبودية لله عز وجل، بل لا بد وأن تتحول هذه المعرفة إلى إيمان عميق يرسخ مدلوله في القلب وينتصر على الهوى لينعكس أثره على السلوك.

.. لا بد من تعانق الفكر بالعاطفة لينشأ إيمان بإذن الله، ويتجلّى هذا الأمر في قوله تعالى: " وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحُقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيَؤْمِنُوا بِهِ فَتُنَخِّبُ لَهُ قُلُوبُهُمْ " [الحج: 54].

ولابد كذلك من استمرار هذا التعانق حتى يرسخ الإيمان في القلب ومن ثم يتمكن من الانتصار على الموى، ويظهر أثره على السلوك، وهذا يستلزم تغذية دائمة لهذا الإيمان.

قال صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيُخْلِقَ⁽¹⁾ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبَ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ إِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»⁽²⁾.

أفلا تتقون؟

ولقد أخبرنا القرآن عن أناس يقرؤون بربوبيته - سبحانه - على جميع خلقه، وبقيامه على شئونهم، ومع هذا الإقرار فهم لا يخشونه، ولا يستسلمون له، وهذا يؤكّد أن إقرارهم كان إقراراً عقلياً محسناً ولم ينشأ به إيمان في القلب، ومن الآيات التي تخبرنا بذلك قوله تعالى: "فُلِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ فُلَّ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيُؤْلُونَ اللَّهُ فُلَّ أَفَلَا تَتَّقُونَ" [المؤمنون: 84-87].

وقوله: "فُلِّمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيَّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ" [يونس: 31].

بل إن القرآن الكريم يقص علينا حال أناس يقرؤون بأنفسهم - بوضوح شديد - أن الإسلام هو المُهدي، لكنهم لا يستطيعون اتباعه خوفاً على حياتهم ومصالحهم " وَقَالُوا إِنَّ نَّصِيحاً مَعَكُمْ تُخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا" [القصص: 57].

.. من هنا تظهر أهمية التربية الإيمانية؛ فلئن كانت التربية المعرفية تهدف إلى إيماء العقل بالعلم النافع الراسخ ألا وهو العلم بالله عز وجل، فإن تربية القلب الصحيحة تهدف إلى: تمكين الإيمان بهذه المعرفة وترسيخها فيه حتى تهيمن عليه، وتتهرّب الموى، فيسهل على المرء القيام بأعمال العبودية بصورها المختلفة.

.. معنى ذلك أن تغيير السلوك تغييرًا حقيقياً إيجابياً لابد أن ينطلق من إصلاح القلب بالإيمان، وعندما نشاهد تغييرًا سلبياً في السلوك فإن ذلك يعكس تمكّن الموى من القلب وضعف الإيمان فيه.

عندما يضعف الإيمان:

لعل هذا الحديث عن الإيمان وعلاقته بالسلوك يفسر لنا ظاهرة ابتعاد الفعل عن القول، والعمل عن العلم. فكلما ضعف الإيمان تمكّن الموى؛ لأن مساحة القلب واحدة؛ ليترتّب على ذلك آثار سلبية خطيرة تزيد وتنقص بحسب درجة ضعف الإيمان.

(1) يخلق: أي يليق.

(2) صحيح، رواه الطبراني والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (1090).

.. فمن آثار ضعف الإيمان: أنك قد تجد شخصاً كثيراً الحديث عن القيم، والمثل، والأخلاق، لكنه يمارس عكس ما يتحدث عنه، وفي بعض الأحيان تجده وقد اعتبره الضيق من حاله وواقعه لكنه لا يستطيع تغييره لأن هوا قد سيطر على إرادته واستولى عليها.

ومن آثار ضعف الإيمان أيضاً: الترخيص فيما لا ينبغي الترخيص فيه، والتساهل والتباطؤ في تنفيذ أوامر الشرع، والبحث عن الرخص والأعذار، وتبني الآراء المرجوحة والضعيفة لإيجاد المبرر والمسوغ للتفلت من التطبيق الصحيح للدين.

ومن آثاره: شدة الاهتمام بالدنيا، والحرص على تحصيلها، وارتفاع سقف الطموحات فيها، وانشغال الفكر بها، مع كثرة أحلام اليقظة بالشراء والرفاهية.

ومن تلك الآثار: شدة الحرص على المال والحزن الشديد على نقصانه، ودوماً إحصائه، وكثرة التفكير في سبل إنماءه، واستيفاء المرء لحقه المالي التام من الآخرين، وفي المقابل قد نجده يحاول التملص من أداء واجباته والتزاماته المالية كاملة تجاههم.

ومنها: شدة تركيز المرء في أمور الدنيا، فتجده متابعاً جيداً لأسعار العملات، والأراضي، والعقارات، والسيارات...

ومنها: ضعف الورع، والوقوع في دائرة الشبهات، والاقتراب من دائرة المحرمات كاستهان الكذب وعدم قول الحقيقة كاملة، وعدم الوفاء بالعهود والمواعيد.

ومنها: الحسد، حيث تتوجه نظره المرء إلى دنيا غيره - وبخاصة أقرانه - أكثر من اتجاهها إلى دينهم، وتترجم هذه النظرة شعوره الداخلي بالضيق عندما يرى عليهم علواً جديداً في الدنيا.

ومنها: ضعف الشعور بالمسؤولية تجاه الدين وقضايا الأمة، وينعكس ذلك على أداء الفرد في الدعوة، فتجده متراجعاً في القيام بواجبات، يتحين أي فرصة للهروب من التكاليف.. كثير الأعذار، كثير النقد لغيره.

ومنها كذلك: ضعف الأخوة في الله، فالأخوة قرينة الإيمان تزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه "إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ" [الحجرات: 10].

ومن مظاهر ضعف الإيمان: عدم الالتزام بتضييع الوقت في تواقه الأمور، وال المجالس الفارغة، ومشاهدة الفضائيات.

ومنها: عدم الانضباط بضوابط الشرع في المعاملات المادية بين الأفراد، وبخاصة بين الشركاء "وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَاطِئِ لَيَسْعَى بِعَضُّهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" [ص: 24].

ومنها كذلك: عدم الحزن على فوات الطاعة، أو الوقوع في المعصية..

يقول عبد الله بن مسعود: إن المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الغاجر يرى ذنبه كذباب مر على أنه ف قال به هكذا⁽¹⁾ (أي: نحاح بيده أو دفعه).

الإيمان يصنع المعجزات:

وفي المقابل.. كلما قوى الإيمان تحسن السلوك بشكل تلقائي، واقتربت المسافة بين القول والفعل، وكيف لا والإيمان الحي يولد دوماً طاقة، وقوة دافعة للقيام بأعمال البر المختلفة حسبما يتضمنه الوقت والظروف.

.. الإيمان هو الشجرة المباركة التي تثمر -دوماً- ثماراً طيبة "إِنَّمَا تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُغُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتَى أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا" [إبراهيم: 24].

.. الإيمان يدفع المرء لبذل أقصى ما يمكن بذله في سبيل رضى ربِّه، فتراه حريصاً على دعوة الناس، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.

صاحب الإيمان الحي شخص إيجابي، شعلة من النشاط، لا يهدأ، ولا يكل، ولا يمل من تبليغ دعوة ربِّه ودلالة خلقه عليه.. بجده دوماً مسارعاً لفعل الخيرات في كل الاتجاهات.. ينتظر أي باب يفتح أمامه للتقرب إلى الله ليتجه فيه.

.. روى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصلى، فمررنا يوماً برسول الله صلى الله عليه وسلم قاعداً على المنبر، فقلت: لقد حدث أمر، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "قَدْ نَرَى تَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَّكَ قِبْلَةً رَّضَاهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" [البقرة: 144].

حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكون أول من صلى (في اتجاه الكعبة)، فتوارينا فصلينها، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم ، وصلى الناس الظهر يومئذ⁽²⁾.

.. كلما ازداد الإيمان ودخل نوره القلب، افتح القلب وانشرح ودبَّت الحياة فيه، وشعر صاحبه بالسكينة والطمأنينة، وزاد انتباذه ويقظته، وكلما استيقظ القلب من غفلته زاد تشميره للسعي نحو الآخرة، وقل اهتمامه بالدنيا ورغبتها فيها، واستبدلت رغبته فيما عند الله، وانعكس ذلك في تعامله مع المال، فيزيد إنجاقه له..

(1) رواه البخاري (6308).

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1 / 168 - مكتبة العبيكان.

.. في يوم من الأيام، وبينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين أصحابه إذ تلا عليهم قوله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يُفَرِّضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ" [الحديد: 11]، فإذا بأحد الحاضرين وهو «أبو الدحداح» يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيسْتَقْرِضُنَا اللَّهُ؟

فيجيبه صلى الله عليه وسلم: «نعم».

فيقول له: لقد أقرضت ربي حائطي (بستانى) ..

هذا البستان كان به من النخل ما يقارب المستمائة نخلة.

وانطلق الرجل إلى البستان، وما إن وصل إليه حتى نادى على زوجته: يا أم الدحداح هيا بنا نخرج من البستان فقد أقرضته ربي.

فقالت المرأة الصالحة لزوجها: ربح البيع أبا الدحداح.. ربح البيع أبا الدحداح⁽¹⁾.

الحارس الأمين:

الإيمان الحي يقوى الواقع الداخلي ليكون بمثابة الحارس اليقظ الذي يراقب صاحبه فيدفعه إلى عمل الصالحات، ويبعده عن المعاصي والشبهات.. لا يدعه يشارك في غيبة أو نعيمة.. يدفعه لتحرى الصدق والتحلي به، وإلى الوفاء بالوعد، ورد الأمانة.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان لأبي بكر رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء، ووافق من أبي بكر جوعاً فأكل منه لقمة قبل أن يسأل عنه، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكھنت لإنسان في الجاهلية، وأحسن الكھانة، ولكنني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك، فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر إصبعه في فيه، فقاء كل شيء في بطنه⁽²⁾.

الإيمان وحل المشكلات:

كلما قوى الإيمان في القلوب نقصت وقلت المشكلات بين الناس، لأن كل مشكلات الإنسان - كما يقول أبو الحسن الندوي - نبع من عبادة النفس والشهوات، نبع من الأنانية.. نبع من النظر القاصر المحدود.. نبع من حب الرئاسة.. والإيمان يستطيع أن يتغلب على كل هذا، ويصنع من الأمة أمّة جديدة⁽³⁾.

ويكفيك لتأكيد هذا المعنى أن تعلم أن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما تولى الخلافة قام بتعيين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على المدينة، فمكث عمر سنة لم يفتح جلسة، ولم يختصم إليه اثنان، فطلب

(1) رواه الطبراني.

(2) رواه البخاري.

(3) نفحات الإيمان لأبي الحسن الندوي ص 23.

من أبي بكر إعفاءه من القضاء، فقال له أبو بكر: أَمِنْ مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟!

فقال: لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه.. أحب كل منهم لأنّيه ما يحبه لنفسه.. إذا غاب أحدهم فقدواه، وإذا مرض أحدهم عادوه، وإذا افتقر أعاشه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب واسوه.. دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيهم يختصمون؟ ففيهم يختصمون؟!

الحقيقة الدائمة:

كلما قوي الإيمان وتمكن نوره من القلب ازدادت حالة اليقظة والانتباه لدينا.. هذه الحالة هي التي ستجعل معاملتنا مع الله لا مع غيره، فحين نعطي الصدقة للفقير نشعر أن الله هو الذي يأخذها "أَمَّ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ" [التوبه: 104].

حالة الانتباه هي التي ستجعلنا نزن كل شيء بميزان الشرع، فيزداد الوع ومخوف من الوقوع في دائرة الشبهات.

.. حالة الانتباه هي التي ستدفعنا دوماً للاستيقاظ قبل الفجر لمناجاة الله، وبث شكوكنا إليه والتعبير عن حبنا وشوقنا له.

.. حالة الانتباه هي التي ستجعلنا دوماً نحافظ على صلاة الفجر في المسجد، وهي التي ستبعينا عن إهدار الأوقات فيما لا نفع فيه، وتصرفنا عن كثرة مشاهدة الفضائيات.

.. ستدفعنا هذه الحالة إلى القيام بواجبات الدعوة خير قيام، وستصغّر من حجم الدنيا في أعيننا، وستقلل طمعنا فيما في أيدي الناس.

.. ومع احتمالية وقوعنا في زلات وغفلات نتيجة ضعفنا البشري، فإن هذه الحال ستدفعنا -بعون الله- للنهوض من الكبوة وسرعة التوبة وتجديد العهد مع الله "نَعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" [ص: 30].
هكذا كان حال الصحابة:

الملاحظ أن السمة العامة للصحابة -رضوان الله عليهم- أَنْهم كانوا في حالة انتباه ويقظة، وليس أدل على ذلك من سرعة إذاعتهم واستجابتهم لرهم ولرسوله، فهذا حنظلة يسمع منادي الجهاد وقد كان في هذا الوقت في فراشه مع زوجته، فماذا فعل؟!

سارع يلي النداء دون أن يفكر في أي شيء آخر... حتى الغسل لم يفكّر فيه... والتحق مع المسلمين في أَخْد واستشهاده، وعندما أراد الصحابة دفنه وجدوا بدنـه يقطـر ماء فأخبرـهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة قد غسلـته، بعد أن عرفـ من زوجـته الحـالة التي خـرج بها.

ترى ما الذي دفع حنظلة لفعل ذلك؟!

ألم يكن من الأولى أن يجهز نفسه أولاً و.... ثم يخرج بعد ذلك؟! لكنه سارع بالخروج انطلاقاً من حالة اليقظة القلبية التي كان يعيشها حتى وإن كان في أشد لحظات الاستمتاع بالدنيا.

وفي يوم من الأيام كان أنس بن مالك يسقي أبا طلحة وغيره خمراً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ فقال: حُرمت الخمر. قالوا: أهرق هذه القلال يا أنس.
قال أنس: فما سأله عنها ولا راجعواها بعد حبر الرجل⁽¹⁾.

ألم يكن من الطبيعي أن يستوثقوا من الخبر بأن يذهبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيعرفوا طبيعة الأمر وحقيقة التحرير قبل أن يتخذوا أي إجراء؟!

لم يفعلوا ذلك، بل دفعتهم شدة حساسيتهم الإيمانية، وورعهم ويقظتهم إلى ما فعلوه.

... وعن البراء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبنته قبلاً البيت، وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل من صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبلاً مكة، فداروا كما هم قبلاً البيت.

ويقول عمارة بن أوس رضي الله عنه: بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذا نادى مناد بالباب: إن القبلة قد حُوّلت إلى الكعبة؛ قال: فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة⁽²⁾.

رأيت - أخي - كيف استحباب هؤلاء الأخيار بهذه السرعة لكلمة سمعوها وهم راكعون؟! مع العلم بأنهم لو كانوا قد أكملوا صلاتهم على وضعهم الأول لما لامهم أحد؟

* * *

(1) صحيح البخاري (4251).

(2) تفسير القرآن العظيم .168 / 1

مستهدف التربية الإيمانية:

المدف القريب الذي ينبغي أن تتحققه التربية الإيمانية هو زيادة الإيمان في القلب حتى يعلو على الموى، أو بمعنى آخر: زيادة الإيمان في القلب بالدرجة التي توقظه من غفلته وتجعله في حالة من اليقظة والانتباه، ومظاهر هذه الحال قد ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله الصحابة عن علامات دخول النور القلب فقال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»⁽¹⁾.

.. هذا هو المدف القريب الذي إن تحقق فعلينا ألا نقف عنده ونكتفي به، بل علينا أن نسعى لتحقيق المدف البعيد وهو تمكين وهيمنة الإيمان على القلب حتى تتحرر إرادته ويصبح قليلاً سليماً يستقبل الأحداث ويعامل مع مستجدات الحياة بدوافع إيمانية " وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ " [التغابن: 11]، فكل ما يصييه حينئذ يجد له تفسيراً «ومعاملة إيمانية» كما قال صلى الله عليه وسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»⁽²⁾.

.. التربية الإيمانية الصحيحة أن تصل بالمرء إلى تنوير قلبه، حتى يصبح قليلاً أحياناً، فتستثير بصيرته، وتعلو حساسيته تجاه كل ما يرضي الله عز وجل فيتسابق إلى فعله، وإلى كل ما يبغضه فيسارع إلى تركه.

.. التربية الإيمانية عليها أن تُخضع مشاعر الإنسان لله عز وجل كما قال صلى الله عليه وسلم: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»⁽³⁾.

غاية التربية الإيمانية الوصول لمرحلة الإحسان التي ذكرت في حديث جبريل المشهور: «أن تعبد الله كأنك تراه»⁽⁴⁾.

* * *

(1) رواه الحاكم والبيهقي في الزهد.

(2) رواه مسلم.

(3) صحيح، رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (5965).

(4) رواه مسلم.

المحور الثالث

النفس وضرورة تركيتها

كان «زيد» وصديقه بعملان سويا في شركة من الشركات، وكانا من يُحسبون على أصحاب التوجه الإسلامي من حيث المحافظة على أداء الصلوات، والالتزام إلى حد ما بضوابط الإسلام وهديه.

وفي يوم من الأيام، وبينما كانوا يقومان بأداء عمل مشترك إذ حدث خطأ ما، كان زيد هو المتسبب فيه، فلما هم صديقه على خطئه وخاصة أن وضعه في الشركة قد يتأثر بسبب هذا الخطأ، إلا أن زيداً لم يعترف بخطئه، بل واعتبر أن صديقه هو المخطئ، وأراد أن يؤكد ذلك له فاقترح عليه أن يقوم (فلان) صديقهما بالتحكيم بينهما وتحديد المخطئ، فذهبا إليه وقصا عليه ما حدث، فكان قراره بأن زيداً هو المخطئ..

استشاط زيد غضباً واعتبر ذلك التحكيم «محاباة» لصديقه فطلب أن يختكمما إلى آخر، وتم له ما أراد ليكون قرار الحكم الثاني بأنه هو المخطئ.. ازداد غضب زيد وطلب حكماً ثالثاً بعد أن أتّهم الحكم الثاني أيضاً بالجاحظة والمحاباة لأنّه تريده بصديقه صلة قديمة و...، فذهبا للثالث ويستمع إليهما بإمعان ثم يكون حكمه مثل سابقيه بأن زيداً هو المخطئ وعليه الاعتذار لصديقه... فهل رضخ زيد لهذا الأمر؟!

للأسف لم يحدث هذا بل ازداد غضبه واتهامه للجميع بمحاجلة صاحبه ومحاباته، وأن هناك مصالح بينهم وبينه تدفعهم للانحياز له.

.. هذه قصة حقيقة، وليس من نسج الخيال، ليقى السؤال: ما الذي يدفع زيداً للتثبت بموقفه الرافض للاعتراف بخطئه -الظاهر البين- الذي لم يختلف عليه اثنان، وخاصة أنّ اعترافه بخطئه لن يتربّ عليه عقوبات تصيبه؟

هل لأنّه لا يريد أن يظهر بمظهر المخطئ؟!

هل لأنّ نفسه تأبى عليه الاعتراف بذلك؟!

هل لأنّه يعتبر هذا الاعتراف منقصة في حقه، وخطأً من قدره؟!

بلا شك هناك سبب داخلي في ذات زيد دفعه لاتخاذ هذا الموقف الذي تكرر منه في مواقف كثيرة سابقة، فتشبيهه برأيه، وعدم اعترافه بخطئه بهذه الطريقة يعكس خللاً في تعامله مع نفسه، فبدلاً من أن يقودها إلى التواضع وخفض الجناح لآخرين والاعتراف بالخطأ عند الواقع فيه، والاعتذار عنه.... بدلاً من أن يقوم بذلك، حدث العكس فقادته نفسه إلى الشعور بالعزّة الزائفة والتميّز على الآخرين، فكان منه ما كان في الموقف السابق وغيره من المواقف المشابهة.

.. هذه للأسف ليست مشكلة زيد فقط، ولكنها مشكلة متكررة، قد نراها في أماكن كثيرة، ونشاهد معها آثاراً سلبية خطيرة.

من هنا تظهر قيمة وأهمية التعرف على النفس، وضرورة جهادها وتزكيتها.

ما هي النفس؟!

من تعريفات النفس أنها مجمع الشهوات داخل الإنسان، لذلك فمن طبيعتها أنها تطمح دوماً لتحقيق ما تقوى وترغب، وتريد أن يكون لها حظ ونصيب في كل عمل يقوم به الإنسان دون النظر إلى عاقب ذلك، كالطفل الذي يقوم بالضغط والإلحاح على أبويه للحصول على شيء قد يكون فيه ضرره، فالنفس كما وصفها القرآن "إِنَّ النَّفْسَ لِمَارَةٍ بِالسُّوءِ" [يوسف: 53].

وهي لا تأمر بالسوء لحب السوء في ذاته، ولكن ظناً منها بإمكانية تحصيل الشهوة منه.

.. ومن صفاتها أنها شحيبة تحب الاستئثار بكل شيء فيه نفع لها ولو كان نفعاً محدوداً "وَأَخْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ" [النساء: 128].

.. لديها القابلية للفحور والطغيان إذا تركها صاحبها بدون ترويض وتربيه ومتابعة.. ولديها كذلك القابلية للاستكناة والتطويق إذا ما رُوضت وركبت " وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾" [الشمس: 7].

.. أشد ما يسعدها شعورها بالتميز عن الآخرين، وأشد ما يشققها ويحزنها شعورها بالنقص عنهم. وهي ميدان التكليف.. من يزكيها يفلح ويفوز، ومن يتركها دون ترويض يخيب ويخسر " قَدْ أَفْلَحَ رَّكَّاها ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾" [الشمس: 9، 10].

ويكفي في بيان قوة طغياتها عندما تترك بدون تركية وتربيه ما فعلته مع قوم ثمود عندما أبى لهم نفوسيهم الإيمان بالآية العظيمة (الناقة)، بل ودفعتهم إلى قتلها ليتحقق عليهم العذاب الويل " كَذَبَتْ قَوْدٌ بِطَغْوَاهَا ﴿إِذَا انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ فَقَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿فَكَذَبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنِبِهِمْ فَسَوَّاهَا" [الشمس: 11 - 14].

وكذلك ما فعلت بابن آدم عليه السلام "فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ" [المائد़ة: 30].

أقسام هوى النفس:

النفس تقوى وتميل دوماً إلى تحصيل الشهوات.. هذه الشهوات تنقسم إلى قسمين: قسم جليّ، وقسم خفيّ.

فالشهوة الجلية: هي اللذة الناتجة عن الطعام والشراب و... .

أما الشهوة الخفية: فهي تلك اللذة الناتجة عن مدح الناس وثنائهم، وكذلك الشعور بالعلو والتميز على الآخرين، وارتفاع المنزلة عندهم، والتقدم عليهم.

ولأن النفس محبوبة، وما تدعوه إليه محبوب بحد الكثير من الناس لا يتبه خطورتها، بل ويترسل مع هواها في تحصيل الشهوات - وبخاصية الخفية - دون أن يدرك أنه بذلك يخونها ويظلمها عندما يتبع هواها، ويساهم في طغيانها، ويقترب من أجلها الذنوب والمخالفات التي تستدعي و تستوجب العقاب الإلهي في الدنيا والآخرة "ومَا ظَلَمْهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" [التحل: 33].

.. البعض قد يستشعر أهمية المعرفة، فينمي عقله بالعلوم النافعة، وقد يتبه قلبه فيتعاهده بالأوراد التي تزيد الإيمان، ولكنه ينسى أن بداخله من يتربص بكل أعماله ليأخذ نصيبه وحظه ولذته منها، فيعرض بذلك عمله لخطر عدم القبول.. إنما نفسه التي بين جنبيه.

الشهوة الخفية:

.. إذن فالنفس هي العقبة الكثيرة بيننا وبين الله عز وجل، ولقد خلقها الله عز وجل - بهذه الصفات ليختبر مدى صدق عبوديتها له، فلولا وجودها لما وجد العبد أي مشقة في القيام بالطاعة، والإخلاص لله عز وجل.

وشهوات النفس الجلية قد ضبطها الشرع وحددها من حيث الحلال والحرام والباح والمكروه، لذلك فمن السهل على صاحب الإيمان الحي أن يلتزم - بعون الله - بهذه الضوابط.

أما الشهوات الخفية فمع تحذير الشرع الشديد من الاسترسال معها إلا أن الكثرين لا ينتبهون إلى هذا التحذير ولا يتعاملون معه مثل تعاملهم الحذر والمنضبط مع الشهوات الجلية، وذلك لأن الشهوة الخفية ألد وأحـب إلى النفس من الشهوة الجلية.

ومن أهم الشهوات الخفية التي تسـكر النفوس، وتحـلـلـها في حالة من السـعادـةـ والـنشـوـةـ: الشـعـورـ بـالـرـضـاـ عنـ النـفـسـ،ـ والـتـمـيـزـ عـنـ الـآـخـرـينـ،ـ وـعـلـوـ الـمـنـزـلـةـ عـنـدـهـمـ،ـ إـذـاـ أـرـدـتـ تـخـيـلـ هـذـهـ المشـاعـرـ فـمـاـ عـلـيـكـ إـلـاـ تـذـكـرـ حـالـكـ عـنـدـمـاـ تـعـرـضـ لـلـمـدـحـ مـنـ غـيرـكـ...ـ

.. ومن صور الشهوات الخفية التي تحرـصـ عـلـيـهاـ النـفـسـ: عـلـوـ الـمـنـزـلـةـ عـنـدـ النـاسـ مـنـ خـالـلـ تـحسـينـ وـتـجـوـيدـ الـعـلـمـ أـمـاـهـمـ،ـ وـذـكـرـ ماـ خـفـيـ منـ الأـعـمـالـ الإـيجـابـيـةـ لـهـمـ،ـ كـلـ ذـكـرـ قدـ يـفـعـلـهـ الـمـرـءـ مـنـ أـجـلـ استـنـاطـاقـ مـدـحـهـمـ وـثـنـائـهـمـ عـلـيـهـ،ـ وـعـلـوـ الـمـنـزـلـةـ عـنـدـهـمـ،ـ وـمـنـ ثـمـ اـسـتـجـالـبـ الشـعـورـ بـالـرـضـاـ عـنـ النـفـسـ...ـ وماـ أـدـرـاكـ ماـ شـعـورـ الرـضـاـ عـنـ النـفـسـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ لـذـةـ وـحـلاـوةـ!!ـ

.. وليس حرـصـ الـمـرـءـ عـلـيـ إـظـهـارـ عـمـلـهـ أـوـ التـحـدـثـ عـنـهـ هوـ وـحـدهـ الـذـيـ يـسـتـحـلـبـ بهـ مشـاعـرـ الرـضاـ عنـ نـفـسـهـ،ـ بلـ هـنـاكـ ماـ هوـ أـخـطـرـ منـ ذـكـرـ إـمـكـانـيـةـ مـلـازـمـتـهـ لـكـلـ عـمـلـ -ـ فـيـ السـرـ وـالـعـلـنـ -ـ أـلـاـ وـهـوـ إـعـجابـ الـمـرـءـ بـعـمـلـهـ أـوـ إـمـكـانـاتـهـ،ـ وـاستـعـظـامـهـ لـهـمـاـ.

هذا الأمر إذا ما تجاوب معه الإنسان واستسلم له فإنه يؤدي به إلى الغرور، والانخداع بنفسه ويؤدي به كذلك إلى الكبر والتعالي على الآخرين، ورفض الانصياع للحق والاعتراف بالخطأ، ويكتفي أن إبليس رفض أمر الله عز وجل بالسجود لآدم بسبب تمكّن هذا الأمر منه "قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ" [الأعراف: 12].

خطورة الرضا عن النفس والإعجاب بها:

الرضا عن النفس والإعجاب بها من أمراض القلوب، وهو يحيط العمل الملازم له، ويعرض صاحبه لمقت الله..

قال صلي الله عليه وسلم: «النادم يتضرر الرحمة، والمعجب يتضرر المقت»⁽¹⁾.

وقال: «من تعظّم في نفسه، واحتال في مشيته، لقى الله وهو عليه غضبان»⁽²⁾.

وهو من المهلّكات التي تحلّك المرأة. قال صلي الله عليه وسلم : «فَأَمَّا الْمَهْلَكَاتُ فَشَحْ مَطَاعٍ وَهُوَ مَتَّعٌ، وَإعْجَابُ الْمَرْأَةِ بِنَفْسِهِ»⁽³⁾.

وقيل للسيدة عائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئا؟ قالت: إذا ظن أنه محسن.

.. والعجب يؤدي إلى الخذلان وقلة التوفيق " وَيَوْمَ حُسْنٌ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ إِمَّا رَحْبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ" [النوبة: 25].

وعندما تواترت انتصارات خالد بن الوليد رضي الله عنه في العراق، بعث إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه برسالة يهنجه على النصر ويحذرها من العجب فقال له: فليهنجك أبا سليمان النية والحظوة، فأتم يتم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخلذ، وإياك أن تُدَلِّل بعمل فإن الله له المتن وهو ولـي الجزاء⁽⁴⁾.

ما هو العجب؟!

الإعجاب بالنفس كما يُعرفه عبد الله بن المبارك: «أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك»⁽⁵⁾.

فعندما يرى المرء أنه يملك أشياء ذاتية لا يملكونها غيره، وأنه يفضلهم بما فقد تلبس بالعجب.

وعندما يرى المرء أنه يملك أشياء ذاتية يمكنه -من خلال الاستعانة بها- تحقيق ما يريد فقد تلبس بالعجب.

فإن قلت: ولكنني بالفعل عندي أشياء ليست عند غيري.. عندي صوت حسن، عندي سرعة

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (7254).

(2) صحيح، رواه الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وأورده الألباني في صحيح الجامع (6157).

(3) حسن: أخرجه الطيالسي عن ابن عمر، وأورده الألباني في صحيح الجامع (3045).

(4) الأخباء لوليد سعيد باحكم ص 129 - دار الأندرس المختبراء- جدة - نقلًا عن تاريخ الطبرى / 3 .385.

(5) سير أعلام النبلاء للذهبي 8/ 407 - مؤسسة الرسالة- بيروت.

بديهية، عندي مقدرة على الاستيعاب.

في الحقيقة هذه الأشياء ما هي إلا إمكانات وهبها الله لك، فهي ملك لربك "إِنَّ اللَّهَ" [البقرة: 156].

وقد أعارك إياها لأجل مسمى "اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ" [المائدة: 120].

وسيتردّها منك متى شاء " قُلْ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكُ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ " [آل عمران: 26]، "إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ" [مريم: 40].

.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الإمكانات لا يمكنها بذاتها أن تحدث وتنشئ النتائج، فالله عز وجل هو الذي يثبت فيها الفاعلية لحظة بلحظة، وأنا بآنٍ " وَأَنَّهُ هُوَ أَصْحَّكَ وَأَبْكَى " [القمر: 43].

"هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" [يونس: 22].

فكيف تُعجب بشيء ليس ملكك؟ وكيف تفرح بشيء لا يمكنك استخدامه ولا تفعيله بدون مدد الله؟

.. إذا أردت أن تعجب وتفرح، فافرح بربك الذي وهبك هذه الإمكانات، و يمكنك من استخدامها "فَرِحِينٌ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ" [آل عمران: 170].

.. هذا بخصوص الإعجاب بالنفس ويامكاناتها.

أما الإعجاب بالعمل فهو أن ينسب المرء أي نجاح يتحقق لنفسه، وينسى أن الله عز وجل هو المفضل عليه بالإعانة والتوفيق والإمداد.

قال المحاسبي: «العجب هو حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان أن النعم من الله عز وجل»⁽¹⁾.

(والعجب خاطر يهيج في داخلك يدعوك لاستعظام عملك واستكثاره، فتقول في نفسك: لقد قويت وصبرت واستطعت فعل كذا.. لقد جاهدت.. لقد فهمت كذا.. صمت في يوم شديد الحر.. لقد أنفقت كذا، فرحاً من نفسك بقوتها، معظمًا لها، مع نسيان نعمة الله عليك في القيام بذلك)⁽²⁾.

لماذا يحيط العجب العمل؟

الله عز وجل لا يقبل إلا ما كان حالصاً لوجهه، واستعين به -سبحانه- على أدائه، أما المعجب فيستعين بنفسه أكثر مما يستعين بالله، لذلك قال ابن تيمية:

«المعجب بنفسه لا يحقق إياك نستعين، كما أن المرائي لا يتحقق إياك نعبد».

فالعجب يحيط العمل الصالح الذي لازمه لأنّه ينافي الإخلاص لله عز وجل.

(1) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي ص 420 – دار اليقين - المنصورة.

(2) المصدر السابق ص 421، 422.

.. كان المسيح عليه السلام يقول: «يا معاشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد قد أفسده العجب»⁽¹⁾.

من هنا ندرك خطورة تحذيره صلى الله عليه وسلم : «لَوْلَا تَكُونُوا تَذَنِبُونَ، لَخَفْتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ: الْعَجْبُ، الْعَجْبُ»⁽²⁾.

ويطلق يحيى بن معاذ تحذيرًا شديداً فيقول: إياكم والعجب، فإن العجب مهلكة لأهله، وإن العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .. فالذى يبيت نائماً ويصبح نادماً، خير من يبيت قائماً ويصبح معجباً.

وقال ابن الحاج في المدخل: من كان في نفسه شيء فهو عند الله لا شيء⁽³⁾.

وأن أعمل صالحًا ترضاه:

الرضا عن النفس والإعجاب بما مرض خطير يعرف طريقه جيداً إلى النفوس إن لم يتم الانتباه إليه والتتحقق ضده، والوقوف له بالمرصاد.

ولنعلم جميعاً أنه ليست العبرة في أداء المرء للعمل الصالح فقط، بل في إحسان هذا العمل، وألا تخالطه آفة تفسده، وأعظم آفة تفسد العمل هو إعجاب المرء به، واستعظامه له، والإدلال به، واستشعار صاحبه أن له منزلة خاصة عند الله، أو عند الناس بسبب قيامه بهذا العمل "وَلَا تَقْنُنْ تَسْتَكْثِرُ" [المدثر: 6].

.. لابد وأن يكون شعارنا ونحن نقوم بالعمل قول العبد الصالح: " وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ " [الأحقاف: 15].

أو بعبارة أخرى: على المرء أن يعمل العمل وأن يجتهد في أن يكون توجّهه وقصده ونيته التي تحركه للقيام بهذا العمل هو ابتغاء رضى الله، وليس هذا فحسب، بل عليه أن يستعين به سبحانه على أداء هذا العمل "فَاعْبُدُهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ" [هود: 123] وبعد العمل، عليه أن يفرح بربه أن أعاشه ووفقه للقيام بهذا العمل "فُلِّ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَيَفْرَحُوا" [يونس: 58]، وعليه كذلك أن يلازم الشعور بالتقدير في حنب الله، ومن ثم الاستغفار لأن هذا العمل لا يليق بجلاله، ولا يوفي ولو جزءاً يسيرًا من حقه سبحانه، وذينه المستحق عليه.. دين النعم المتواترة بالليل والنهار بشتى أنواعها.

(1) الزهد للإمام أحمد.

(2) صحح الجامع الصغير (5303).

(3) المدخل لابن الحاج 25 / 2 - دار الكتب العلمية - بيروت.

ويدل على أهمية ملازمة هذا الشعور للعبد بعد نجاحه في أداء الطاعة قوله تعالى: " إِنَّمَا أَفْيَضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ " [البقرة: 199] قوله: " إِذَا جَاءَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ◆ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ◆ فَسَبَّحُوكَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا " [سورة النصر].

جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد أن النبي عليه السلام مر برجل يدعوه ويترىضع، فقال: يا رب ارحمه، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه⁽¹⁾.

فإن لم نفعل ذلك، وإن سكن المرء إلى نفسه، واستعن بإمكاناته عند أداء العمل، ولم يستعن بربه استعاناً حقيقة، ولم ينسب الفضل إليه، وأعجب بنفسه بعد العمل، فقد عرض هذا العمل للإحباط والعياذ بالله.

ماذا لو أهملت التربية النفسية؟!

عندما يهمل المرء تركيبة نفسه فمن المتوقع أن تظهر عليه، وعلى الدائرة الحبيطة به الكثير من الآثار السلبية.. هذه الآثار ستتفاوت من شخص لآخر بحسب درجة إهمال تركيبة النفس.

فمن تلك الآثار المتوقعة: استحوذ المعجب بنفسه على الحديث في أي لقاء يجمعه مع غيره لأنه يرى أنه أحسن من يتكلم.

وستسأل له نفسه أنه أحسن من يفكر، لذلك قد تجده مصرًا على فرض رأيه على من حوله، معرضًا عن الاستماع إلى آراء الآخرين، بل قد يسفه آراءهم، ولا يقيم لها اعتبارًا.

.. ومن تلك الآثار: إكثاره من نصح الآخرين وتوجيههم، ونقد آرائهم وأفعالهم، وفي نفس الوقت تجده لا يقبل النصح من أحد وخاصة من أقرانه أو من هم أقل منه سناً أو شأنًا، ولا يسمح لأحد ب النقد آرائه أو أفعاله.

.. يصعب عليه الاعتراف بخطئه، ويجهد في تبرئة نفسه من أي اتهام بالقصصير ولو اضطره ذلك إلى الكذب أو اتهام الآخرين بالتجني عليه وظلمه.

.. إذا ما تولى رئاسة عمل (ما) تراه شعلة نشاط، فإذا ما تم تأخيره ولو لحظة واحدة، وتقدم غيره عليه؛ أصابه الفتور، وأنحدر يتهرب من أداء التكاليف، مع تصيده لأخطاء من أخذ مكانه، وكثرة نقاده والتقليل من شأن أعماله.

... لا يحب الناجحين من أقرانه، ويتحاشى الحديث عنهم، فإن اضطر لذلك تجده يجهد في إبراز سلبياتهم، والتقليل من حجم نجاحهم.

(1) الزهد للإمام أحمد ص 88 – دار الكتب العلمية.

.. عندما يتحدث في أي محفل فإنك تجده دوماً يصيغ كلامه بالحديث عن نفسه (أنا.. لي.. عني)، ولا يمل من تكرار ذلك.

لا يقوم بتفويض غيره من أقرانه، أو من يعمل تحت يديه بأداء أعماله ذات الصبغة التوجيهية ولو كانت صغيرة، لأنه لا يري أن هناك من يمكنه أن يؤدي مثل أدائه المتفجر، ويوجه مثل توجيهه المتواجد.

كل هذه وغيرها قد يؤدي إلى نفور الناس منه، وضيقهم من حديثه، وعدم العمل معه بتفان وحب، فكما يقول مصطفى السباعي -رحمه الله-: «إن نصف الذكاء مع التواضع أحب إلى قلوب الناس وأنفع لل المجتمع من ذكاء كامل مع الغرور»⁽¹⁾.

نماذج مضيئة:

أدركت الأجيال الأولى خطورة إهمال تزكية النفس، والسكنون إليها، والرضا عنها وأدركوا أن أخطر آفة يمكن أن تصيب المرء هي أن يذوق طعم نفسه، فيطوع كل أعماله وأقواله وحركاته لإسعادها، وسقايتها ما تستلزم به فكانت أحواهم وأقواهم تدل على ذلك.

ولقد كان قد وقتم في هذا الأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين.. أخرج ابن المبارك في الزهد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أتى له ب الطعام فقالت له عائشة: لو أكلت يا نبي الله وأنت متكمي كان أهون عليك، فأصغى بجهته حتى كاد يمس الأرض بها وقال: « بل آكل كما يأكل العبد وأنا جالس كما يجلس العبد، فإنما أنا عبد»⁽²⁾.

ومن أ قوله: «إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»⁽³⁾.

ومن صور استصغاره وتواضعه مع نفسه قوله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله أخي يوسف لو أنا أتاني الرسول بعد طول الحبس لأسرعت الإجابة حين قال : "ارجع إلى ربك فاسأله ما باع التسئة" » [يوسف: 50]⁽⁴⁾.

وعندما دخل عليه رجل فأصابته من هبته رعدة، فقال له: «هون عليك، فإن لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»⁽⁵⁾.

وهذا صاحبه أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- يصعد على المنبر في أول خطبة يخطبها بعد توليه

(1) هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي.

(2) الزهد لابن المبارك برقم (193) في زيادات نعيم بن حماد ص (53).

(3) رواه مسلم.

(4) صحيح، أخرجه الإمام أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (3491).

(5) صحيح الجامع الصغير (7052).

الخلافة ويقول: «لقد وليت عليكم ولست بخيركم»، مع إنه بنص الأحاديث النبوية خير الأمة، ولكنه لم يعش مع هذه الحقيقة، ولم يتغاول معها، بل كان دائم الخدر من نفسه، وكان يلبس خاتماً تُقْتَشَ على: «عبد ذليل لرب جليل».

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ليست مرة درعاً لي جديدة فجعلت أنظر إليها، فأعججت بها.
فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بمناظر إليك، قلت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقتله الله عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟
قالت: فنزعته فتصدقـت به.. فقال أبو بكر: عسي ذلك أن يكفرـ عنك⁽¹⁾.

وهذا أبو عبيدة بن الجراح وقد ألم قوماً يوماً، فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بي آنفاً حتى رأيت أن لي فضلاً على من خلفي، لا أؤم أبداً⁽²⁾.

ونادى عمر بن الخطاب يوماً: الصلاة جامعة.. وصعد المنبر وقال: أيها الناس، لقد رأيتني أرعى على حالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر والزبيب، فأظل في يوم وأي يوم.. ثم نزل!!
فقال عبد الرحمن بن عوف: والمـلـ يا أمـيرـ المؤـمـنـينـ ما زـادـتـ عـلـىـ أـنـ قـمـئـتـ نـفـسـكـ.

فقال عمر: وبـحـكـ يا ابنـ عـوـفـ، إـبـيـ خـلـوتـ فـحـدـثـنـيـ نـفـسـيـ فـقـالـتـ: أـنـتـ أـمـيرـ المؤـمـنـينـ فـمـنـ ذـاـ أـفـضـلـ مـنـكـ؟ـ فـأـرـدـتـ أـنـ أـعـرـفـهـاـ نـفـسـهـاـ.

وقال عروة: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمـيرـ المؤـمـنـينـ لا ينبغي لكـ هذاـ، فـقـالـ: لـمـ أـتـنـيـ الـوـفـوـدـ بـالـسـمـعـ وـالـطـاعـةـ دـخـلـتـ فـيـ نـفـسـ نـخـوـةـ، فـأـحـبـتـ أـنـ أـكـسـرـهـاـ، وـمـضـىـ بـالـقـرـبةـ إـلـىـ حـجـرـةـ اـمـرـأـ مـنـ الـأـنـصـارـ فـأـفـرـغـهـاـ فـيـ إـنـاءـهـاـ⁽³⁾.

* * *

مستهدف التربية النفسية:

لما كانت تركية النفس أمر غاية في الأهمية، كان لابد من تعاهد المرء لنفسه، وعدم الاطمئنان لها، أو الوثيق بها.

لابد من تركية النفس، وتربيتها على العبودية لله عز وجل، والتي تصل بالمرء إلى اليقين بأنه بالله وبإمداداته لا بنفسه العاجزة الأمارة بالسوء، وأن يوقن كذلك بأن بينه وبين الكفر أن يتركه الله عز وجل:
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا [النور: 21]، ألم يكن من دعاء إبراهيم -

(1) العجب لعمر بن موسى ص 98، نقلـاـ عن حلـيةـ الأولـيـاءـ لأـبـيـ نـعـيمـ 37/1

(2) الرهد لابن المبارك برقم (834) ص 287

(3) صلاح الأمة في علو المحة للعفاني 435/5

عليه السلام - "وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" [إبراهيم: 35].

.. ويوقن أيضاً بأن أي طاعة يؤديها فالله - عز وجل - وحده هو الذي أعاذه وحبيبه إلية القيام بها، وبعث فيه القوة الالزمة لأدائها، وأزاح عنه العائق التي من شأنها أن تعطله عنها " وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَى إِلَيَّ رَبِّي " [سباء: 50].

.. التربية النفسية تهدف إلى: تحقيق نكران الذات، وممارسة التواضع بصورة تلقائية غير متكلفة، وتحدف كذلك إلى أن يكون المرء عند نفسه صغيراً، وأن يرى الناس جميعاً أفضل منه، كما يقول الإمام النووي: «لا تستصغر أحداً فإن العاقبة منطوية، والعبد لا يدرى بم يختتم له. فإذا رأيت عاصياً فلا تر نفسلك عليه، فربما كان في علم الله أعلى منك مقاماً، وأنت من الفاسقين، ويسير يشفع فيك يوم القيمة...».

* * *

المحور الرابع

بذل الجهد في سبيل الله

(التربية الحركية)

من طبيعة الإنسان أي إنسان الحركة وبذل الجهد في سبيل تلبية احتياجاته، وتحقيق أهدافه، فالحركة دليل الحياة.

.. هذه الحركة لابد لها من توجيه صحيح حتى تكون مشمرة، تؤدي إلى النجاح في تحقيق هدف وجود الإنسان على الأرض.

فالله عز وجل - لم يخلقنا ويسكنا الأرض لكي نأكل أو نشرب أو نتزوج، بل خلقنا لأداء اختبار العبودية له - سبحانه - بالغيب.

.. نعم، علينا ونحن نؤدي هذا الاختبار أن نقوم بالمحافظة على أجسادنا والعمل على نموها الصحيح بالغذاء النافع حتى نستطيع أن نؤدي تكاليف الاختبار، ولا بد من التزاوج حتى تظهر الأجيال الجديدة التي قدر الله وجودها.. وهكذا.

ولأن الله عز وجل يريد للناس جميعاً الخير، والنجاح في اختبار العبودية، وعدم الانشغال بزينة الحياة الدنيا فقد أرسل إليهم رسائل متعددة كان آخرها رسالة القرآن والتي كلف أمم الإسلام بنشرها في العالمين "كُنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" [آل عمران: 110]، لذلك فإن من أهم واجبات المسلم نشر دعوة الإسلام لاستقاذ كل من فيه خير وشوق إلى المداية.

فمن أحب الأعمال إلى الله دعوة الخلق إليه "وَمَنْ أَحْسَنْ قَوْلًا مَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" [فصلت: 108].

ومن أحب الأعمال إلى الله كذلك بذل الجهد في سبيله: "أَجَعْلُتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ" [التوبه: 19].

لا مصادمة للفطرة:

ليس المقصود من بذل الجهد في سبيل الله ترك الدنيا، والتفرغ للدعوة؛ فالإسلام لا يصادم الفطرة، بل يلي احتياجاتها دون إفراط أو تفريط كما قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو: «.. فِإِنْ جَسَدَك

عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا»⁽¹⁾.

فمن الضوري أن يكون هناك جزءاً معتبراً من حركة المسلم مخصصاً لتلبية احتياجاته، واحتياجات من يعولهم دون إخلال بواجباته الدعوية كما سيأتي بيانه. ولكي يستفيد المرء من هذا الجزء المعتبر من الجهد المبذول؛ من المناسب أن يتعلم ويكتسب بعض المهارات التي من شأنها أن تحسن أداءه، والتي يطلقون عليها مسمى «تطوير الذات»، ومن أمثلة تلك المهارات:

إدارة الوقت، التواصل مع الآخرين، التخطيط، فن التعامل مع الزوجة والأولاد، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة الحذر من الانبهار بهذا الأمر والانسياق وراءه بالدرجة التي تشغّل الوقت والتفكير، وتبعد المسلم عن مهمته الأساسية في إصلاح نفسه ودعوة غيره.

إن هذه المهارات ينبغي أن تكون كالمحسّنات للطعام، فهي لا تصنع شخصية متكاملة، ولا تبني فكراً، ولا تنور قليلاً، ولا تتركي نفسها.

.. بالفعل هي **تحسين الأداء** - بعون الله - ولكن لابد من وضعها في مكانها الطبيعي في سلم أولويات التربية حتى لا ينساق المرء وراء بريق شعاراتها، وبما تتحققه من نجاح سريع في بعض الجزئيات، فتأتي عنده بنتيجة عكسية، ويفطن أن إتقانه لعدد من المهارات كفيل بتكونين شخصيته، وتقويم سلوكه، وأن ما ينقص الأمة هو الاهتمام أكثر بهذه المهارات.. كل ذلك قد يحدث نتيجة الفراغ الداخلي، وعدم وضوح الرؤية لطبيعة وظيفة المسلم على الأرض.

ونعود فنؤكد بأن هذا الكلام ليس معناه الرهد في هذا (الفن) بل معناه وضعه في حجمه الطبيعي، فالحكمة ضالة المؤمن أَنْيَ وجدتها فهو أولى الناس بها.

بذل الجهد في سبيل الله:

بالإضافة إلى حركة المرء لتلبية احتياجاته المعيشية؛ فإن على المسلم أن يكون له جهد وحركة في سبيل الله من خلال محورين أساسين:

المحور الأول: العمل الصالح

على المسلم أن يعمل بالطاعات والأعمال الصالحة التي أمره الله بها، ويجهد في القيام بالأعمال المنووبة والتي تسمى «فضائل الأعمال» قدر المستطاع.

فلكي يرسخ الإيمان في القلب لابد من إتباعه بالعمل الصالح: "وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوَيْلَكَ هُمُ الْمَرْجَاتُ الْعُلَا" [طه: 75].

فعلى المسلم أن تكون دائرة بذل جهده الأولى هي نفسه وأن يجتهد في استكمال جوانب التربية الثلاثة المشار إليها آنفاً (المعرفية والإيمانية والنفسية)، وأن يجتهد كذلك في العمل بكل ما يبلغه من أعمال صالحة موافقة للسنة حتى يكتب من أهلها.

يقول الإمام النووي: ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة واحدة ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقاً، بل يأتي بما تيسر منه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»⁽¹⁾.

المحور الثاني: دعوة الخلق إلى الله:

وعلى المسلم أن يكون له جهد يعتبر بذله في الدعوة إلى الله " قُلْ هَذِهِ سَيِّلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ " [يوسف: 108].

فلا يكفي أن يكون المسلم صالحاً في نفسه ليحقق العبودية الحقة الكاملة لله عز وجل، بل لا بد من قيامه بواجب تبليغ رسالة ربه، ودعوة خلقه إليه " قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا ﴿إِلَّا بِالْأَغَاءِ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾" [الجن: 22، 23].

وليس هذا أمراً اختيارياً، بل هو تكليف إلهي لأمة الإسلام منذ أن احترارها الله عز وجل لتقود البشرية وتسعدها بالإسلام.

.. إنه تكليف إلهي بالشهادة على الناس "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ" [البقرة: 14].

ولكي نشهد على الناس شهادة صحيحة لا بد من تبليغهم الرسالة أولاً على أحسن ما يمكن التبليغ، ثم التعرف على موقفهم من هذه الرسالة، فإذا ما سألنا الله عز وجل يوم القيمة عن هذه الشهادة كان الجواب المفترض أن نجيب بمثله: إننا قمنا بتبليغ الرسالة إلى قوم (كذا) و (كذا) فاستجاب بعضهم ولم يستجب الآخر.

.. من هنا نقول بأن تربية الفرد لا تكتمل إلا إذا كانت له حركة وجهد بذله في تبليغ رسالة ربه ودعوة خلقه إليه.

يؤكد الإمام حسن البنا على هذا المعنى فيقول: كلف الله المؤمنين بمهمة، وألقى على عاتقهم بواجب هو: هداية البشر إلى الحق، وإرشاد الناس جميعاً إلى الخير، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام، فذلك قوله تبارك وتعالى: + يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعُلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(1) الأذكار للنووي ص 27، 28 - دار المدى - الرياض.

﴿وَجَاهُهُوَ فِي اللَّهِ حَقًّا جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مُّلَةً أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلٍ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شَهِداءً عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 77].

معني هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حق الميمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصايا النبيلة.

ويستطرد قائلا تحت عنوان: وصاية المسلم تضحيه لا استفادة.

ثم بين الله تبارك وتعالى أن المؤمن في سبيل هذه الغاية قد باع الله نفسه وما له فيها شيء، وإنما هي وقف على نجاح هذه الدعوة و إيصالها إلى قلوب الناس، وذلك قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ" [التوبه: 111].

ومن ذلك نرى أن المسلم يجعل دنياه وقفًا على دعوته ليكسب آخرته جراء تضحيته.

ومن هنا كان الفاتح المسلم أستاذًا يتصرف بكل ما يجب أن يتحلى به الأستاذ من نور وهداية ورحمة ورأفة، وكان الفتح الإسلامي فتح تمدين و تحضير وإرشاد وتعليم⁽¹⁾.

وإسلاماه:

ولئن كان بذل الجهد في سبيل الله مطلوبًا من المسلم في كل وقت؛ إلا أن الحاجة تشتد إليه في هذا العصر أكثر من أي وقت مضى، كيف لا وال المسلمين قد أصبحوا تحت أقدام أعدائهم، وتراجع دورهم الحضاري، وأصبحوا عالة على الأمم الأخرى، بالإضافة إلى تغلغل المشروع الصهيوني في ديار الإسلام، واستعلاء الباطل، وارتفاع رياض المادية والعلمانية، مع ابعاد المسلمين عن تطبيق تعاليم دينهم بصورة صحيحة..

من هنا تبرز الحاجة لبذل غاية الجهد في اتجاه تغيير هذا الوضع، والمساهمة الفعالة في بناء المشروع الإسلامي الذي ينطلق من قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ" [الرعد: 11].

مستهدف التربية الحركية:

التربية الحركية لابد وأن تشمل ضبط وتوجيه حركة المسلم في الحياة، وهدفها أن يكون له أثر طيب في كل مكان يحل فيها "وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ" [مرم: 31]، وأن يساهم مساهمة بناءه في إقامة المشروع الإسلامي الذي يهدف إلى استئناف الحياة الإسلامية الصحيحة، ويهدف كذلك إلى إنقاذ البشرية من الضياع، وإسعادها بالإسلام "وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمُ اللَّهُ" [الأنفال: 39].

(1) رسالة إلى أي شيء ندعوه الناس؟ ص 34، 35 بتصريف يسير.

التكامل التربوي

.. عقل المسلم بحاجة إلى تغذيته بالمعرفة النافعة حتى يكتمل نموه، وتفتح نوافذه، وتتسع مداركه.

.. وقلبه بحاجة إلى إيمان متجدد حتى يستضيء، وينفتح ويصبح قلبا سليما.

.. ونفسه بحاجة، إلى ترويض وتركيبة حتى يسلس قيادها وارتداوها رداء العبودية لله عز وجل.

.. أما حركة المسلم فهي بحاجة إلى توجيهه مستمر حتى يكون له أثر نافع في الحياة، وحتى يتحقق -من خلال ذلك الأثر- مراد ربه من وجوده كمسلم يحمل طوق النجاة للبشرية جماء.

.. هذه الأمور الأربع لا يكفي لتحقيقها اهتمام لحظي، أو إمداد عابر، بل لا بد من دوام الإمداد والرعاية حتى يظهر الأثر المطلوب.

* فالعقل بحاجة إلى دوام التغذية بالعلم النافع الذي يُعيّنه بربه، ويعرفه بأوامره ونواهيه، وما يرضيه وما يغضبه، ويعرفه كذلك بكيفية تحقيق مراده سبحانه بنشر دينه، وإسعاد خلقه بالإسلام، وما يستدعيه ذلك من أن يكون عالماً بزمانه، فاهماً لدینه، مدرّغاً لأحوال المخاطبين، وبيئاتهم المختلفة.

ويتحقق بالعلم النافع معرفة كل ما من شأنه أن يُيسّر على المسلم أداء حقوق العبودية لله عز وجل.

مع الأخذ في الاعتبار ضرورة استمرار تغذية العقل بهذه المعارف إن أردنا تحقيق مستهدف «التربية المعرفية».

وعندما يغذى المرء عقله بمعلومات عشوائية يسمعها في (فضائية)، أو يقرأها من خلال تصفحه للشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، أو بقراءته بعض صفحات من كتاب.. فالغالب أن هذا كله لن يحدث الأثر الذي تحدثنا عنه، بل سيكون أثراً لحظياً، ناهيك عن نوعية ما يقرأ، ومدى قرينه أو بعده عن مفهوم العلم النافع.

أما إذا أردنا أثراً تربوياً حقيقياً للعلم النافع فلا بد من الاستذكار والمدارسة، والصبر على الكتاب حتى نهايته، مع استخراج الجديد والمفيد منه.

إحسان العمل أولاً:

أما بخصوص القلب: فلكي يتنور، ويصبح قلباً سليماً لا بد من دوام إمداده بالإيمان حتى تتحرر إرادته من أسر الموى، ومن ثم يسهل على صاحبه اتخاذ القرار بالعمل الصالح في أي وقت، وأي اتجاه.

وليس المطلوب لتحقيق مستهدف «التربية الإيمانية» هو الإكثار من الأوراد والأعمال الصالحة فقط دون النظر إلى كيفية أدائها والأثر الناتج عنها، بل المطلوب هو الاجتهداد في حضور القلب وتحركه وانفعال المشاعر وتأثرها وتجاوبيها مع العمل، فأوقات التأثر هي أوقات زيادة الإيمان "الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا ثُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال: 2].

والتأثير «عنوان» حركة القلب والمشاعر مع العمل، وهو يختلف باختلافها، ففي الدعاء يسمى تضرعاً، وفي الصلاة خشوعاً، ومع آيات الوعيد: خوفاً ورعباً، ومع آيات الوعد والرجاء: فرحاً واستبشراناً وهكذا... وعندما لا يحدث التأثير والانفعال مع العمل فهذا معناه أن القلب لم يستفده منه بزيادة الإيمان فيه، وهذا قد يفسر لنا سبب التناقض في شخصية البعض من تراه محافظاً على الصلوات، ومكثراً من النوافل والأوراد ومع ذلك فهو لا يتورع عن الكذب، أو الغش، وقد تراه يحرض على المال ويسيء معاملة من حوله.

فالتشخيص الصحيح لهذه الحالة أن أثر الأعمال الصالحة لم يصل للقلب، ولم يزد الإيمان فيه، ومن ثم لم يشعر تحسناً في السلوك، لذلك كان من دعائه صلوا الله عليه وسلم : «اللهم إني أعوذ بك من صلاة لا تنفع»⁽¹⁾.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: ركعتان مقتضستان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه⁽²⁾.

ويقول ابن رجب: كان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون الإكثار منه، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع الغفلة وعدم الإتقان. وقال بعضهم: إن الرجلين ليقومان في الصفر، وما بين صلاحتهما كما بين السماء والأرض⁽³⁾.

احذر نفسك:

ومع دوام إمداد القلب بالإيمان على المرء ألا ينسى نفسه، أو يغفل عنها، وعليه أن يسيء الظن بها، مع مجاهدتها دوماً على لزوم الصدق والإخلاص لله عز وجل، وعليه عدم التوجّه بالعمل لغيره سبحانه، وكذلك فإن عليه أن يري نفسه على الاستعانة بالله في أموره كلها، وأن يضبط فرجه بعد نجاحه في أداء العمل، وأن يجعل هذا الفرج: فرحاً بالله وبفضل الله أن أعاذه ووقفه على إتمام هذا العمل، وعليه أيضاً أن يربى نفسه على نكران الذات، والتواضع، وأن يكون في

عين نفسه صغيراً، وأن يرى الناس جمِيعاً أفضل منه، وأن يلازم الشعور باليأس من النجاة بعمله، وأن عمله مهمًا كثُر فلن يوفي مثقال ذرة من حق الله ودينه المستحق، وأن يوقن بأن نجاته متعلقة بعفو الله عنه ورحمته إياه..

(1) رواه أبو داود (1546).

(2) الرهد لابن المبارك برقم (927).

(3) مجموع رسائل ابن رجب 1/352.

.. هذه المعاني لا يكفي مجرد معرفتها لكي تتحقق، بل لابد من ممارستها، والتربية عليها، واختبار النفس دوماً فيها.

الحركة المباركة:

ومع الاهتمام بال التربية المعرفية والإيمانية والنفسية لابد من الاهتمام كذلك بال التربية الحركية التي تهدف إلى التعود على بذل الجهد في سبيل الله وتبيّغ دعوته.

ولا يكفي - كما أسلفنا - أن يتحرك ويبذل جهده من أجل خدمة دينه حسبما تتحمّن ظروفه، بل ينبغي أن تشكل عنده «منهج حياة»، وأن يجعلها في أولوياته عندما يخاطط لوقته.

ماذا لو أهملت التربية؟

هذه المحاور الأربع لل التربية علينا الاهتمام بها جميعاً، وعدم التركيز على محور دون الآخر، ولو حدث هذا لكان النتاج: تشوّه في الشخصية، وعدم ظهور ثرثرة التربية المتكاملة ألا وهي تحقيق العبودية لله عز وجل بمفهومها الصحيح.

فعدّم اهتمام بتحصيل العلم دون الاهتمام بزيادة الإيمان، فستكون النتيجة المتوقعة: شخص كثير التنظير، حافظاً للنصوص، كثير الحديث عن القيم والمبادئ والمعاني العظيمة، لكنه تجد في المقابل واقعاً مختلفاً عن الأقوال والتنظيرات، فهو يتحدث عن العدل والمساواة، بينما لا يتعامل هو مع الآخرين بهذه القيم وبخاصة مع من يرأسهم.. يتحدث عن الزهد في الدنيا وأهمية العمل للأخرّة في حين يحرص على جمع المال، وينفق منه بحساب شديد، ويدقق في كل شيء، وفي أتفه الأمور.

.. كل هذا وغيره بسبب عدم الاهتمام بالإيمان بنفس درجة الاهتمام بالعلم، فالذي يقرب المسافة بين القول والفعل، ويترجم العلم إلى سلوك هو الطاقة والقدرة الروحية المتولدة من الإيمان كما أسلفنا. أما عندما يتم الاهتمام بالإيمان دون العلم فستجده أمامك شخصاً جاهلاً مشوهاً يتشدد فيما لا ينبغي التشدد فيه، ويترخص فيما لا ينبغي الترخص فيه.

ستجده شخصاً ضيق الأفق لا يستطيع أن يتعامل مع فقه الواقع ومستجدات العصر، ولعل في قصة التائب - قاتل المائة - ما يؤكد ذلك، فهذا الرجل الذي كان قد قتل تسعين نفساً ثم تاقت نفسه للتوبة فسأل عن أعبد الناس فدلوه على راهب، فذهب إليه وأخبره بما فعله ثم سأله: هل لي من توبه؟!! فكانت إجابته بالنفي تعكس مدى جهله بالله عز وجل الغفور الرحيم، فما كان من الرجل إلا أن قتله بعد أن يأسه من التوبة، ليكمل به الصحبة المائة.

وبعد ذلك تاقت نفسه مرة أخرى للتوبة، فسأل عن أعلم الناس، فدلوه على عالم بمفهوم العلم الصحيح ألا وهو العلم بالله وبأحكامه فذهب إليه وسأله: هل لي من توبة بعد كل ما فعلته؟!، فطمأنه هذه العالم، وأجابه بأن له توبة فالله - عز وجل - يغفر الذنوب جميعاً، ثم طلب منه أن يغادر بلدته إلى

بلدة أخرى حتى تحسن توبته بوجوده في وسط طيب لا يُذَكِّرها بماضيه.

فما أضر على الإنسان من الجهل !! وما أحضر على الإنسان من ضعف الإيمان !!

أعلم ولكن لا أستطيع:

.. وفي حالة الاهتمام بالتربيـة النفـسـية والتـعـرـف عـلـى النـفـس ومـدـى خـطـورـتـها عـلـى الإـنـسـان مـع إـهـمـال التـرـبـيـة الإـيمـانـية الصـحـيـحة، فـمـن المـتـوقـع أـن تـجـدـ أـمـامـكـ شـخـصـا كـثـيرـاً النـقـد لـنـفـسـهـ، حـزـينـاً عـلـى حـالـهـ وـكـيفـ أـنـهـ يـكـثـرـ منـ الـحـدـيـث عـنـ نـفـسـهـ وـإـنـجـازـاتـهـ، لـكـنـهـ لـا يـسـتـطـعـ تـرـكـ ماـ يـتـضـاـيقـ مـنـهـ لـأـنـهـ لـا يـجـدـ القـوـةـ الدـافـعـةـ لـجـهـادـ نـفـسـهـ أـلـاـ وـهـيـ قـوـةـ الإـيمـانـ.

عبادة الذات:

أما في حالة الاهتمام بالعلم والإيمان مع عدم الانتباه للنفس، وإهمال تركيتها، فسيكون النتاج: شخص كثير العبادة، كثير المعلومات.. سباق لفعل الخير وبذل الجهد، لكنه متورم في ذاته، لا يرى نفسه إلا بعدسة مكببة، ويرى غيره بعكس ذلك، لأن عبادته وأوراده وبذله في الغالب سيغذى إيمانه بنفسه وبقدراته وأنه أفضل من غيره، فيتمكن منه - بمجرور الأيام واستمرار الإنجازات والنجاحات - داء العجب، ومن ورائه الغرور والكبر والعياذ بالله، فيعرض نفسه لمقت ربه وحبوط عمله.

جاء في الأثر : قال تعالى : يا داود إني قد آليت على نفسي أن لا أثيب عباداً من عبادي إلا عبداً قد علمت من طلبه وإرادته وإلقاء كتفه بين يدي أنه لا غنى له عني... وأنه لا يطمئن إلى نفسه بنظرها وفعلاها إلا وكلته إليها⁽¹⁾...

تفريغ الطاقة وبذل الجهد:

ومع ضرورة الاهتمام بالتربيـة المعرفـية والإـيمـانـية والنـفـسـية تـأـتيـ كذلكـ أهمـيـةـ التـعـودـ عـلـىـ بـذـلـ الجـهـدـ فيـ سـيـلـ الـهـةـ وـفـيـ دـعـوـةـ النـاسـ إـلـيـهـ، فـلـوـ لمـ يـتـحـرـكـ المـسـلـمـ، وـيـعـلـمـ النـاسـ مـاـ تـعـلـمـهـ، وـيـأـخـذـ بـأـيـدـيـهـمـ لـتـغـيـرـ مـاـ بـأـنـفـسـهـ بـإـذـنـ اللـهـ فـإـنـهـ سـيـصـابـ بـالـفـتـورـ وـالـخـمـولـ وـالـكـسـلـ، وـلـنـ يـدـرـكـ أـسـرـارـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمعـانـيـ الـتـيـ يـتـعـلـمـهـاـ، وـكـيـفـ لـاـ، وـهـوـ لـاـ يـمـارـسـهـاـ فـيـ الـوـاقـعـ الـعـمـلـيـ، كـالـبـرـ الـتـيـ إـذـاـ مـاـ تـرـكـتـ وـلـمـ يـسـتـخـدـمـهـاـ النـاسـ أـسـنـتـ وـغـاضـ مـأـؤـهـاـ وـجـفتـ.

فعلى سبيل المثال : القرآن الكريم الذي يعد بمثابة المصدر الأول للعلم والإيمان وتركية النفس لا يدرك أسراره قاعد - كما يقول سيد قطب - ولا يعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به⁽²⁾.

ويقول : والذين يتلمسون معانـي القرآن ودلـالـتـهـ وـهـمـ قـاعـدـونـ، يـدـرـسـونـ درـاسـةـ بـيـانـيـةـ أوـ فـيـةـ لـاـ

(1) الحجة للجنيد.

(2) في ظلال القرآن 4/2038.

يمكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة بعيداً عن الحركة... إن حقيقة القرآن لا تكشف للقاعد़ين أبداً⁽¹⁾.

خطورة الحركة بدون زاد:

وفي المقابل ، فإن الحركة وبذل الجهد في سبيل الله، إن لم يكن وراءها زاد متجدد فإن عوّاقب وخيمة ستلحق ب أصحابها، ويُكفيك في بيان هذه الخطورة قوله صلى الله عليه وسلم : «مثُلُ الْذِي يَعْلَمُ النَّاسَ الْخَيْرَ، وَيَنْسَى نَفْسَهُ، مثُلُ الْفَتِيلَةِ، تضيئُ لِلنَّاسِ، وَتُحْرِقُ نَفْسَهَا»⁽²⁾.

... فلا بد من الأمرين معا: لا بد من الزاد، ولا بد من التحرك بهذا الرزد.

إن العلاقة بين الزاد والحركة، كالعلاقة بين خزان المياه، وضغط المياه المتدفع من الصنبور المتصل به، فعلى حسب كمية المياه في الخزان تكون قوة تدفقها من الصنبور، فإذا نقص منسوب المياه في الخزان بشكل كبير، فإن تيار الماء ينزل ضعيفاً من الصنبور، أما إذا ما أصبح الخزان فارغاً، فإن الصنبور لن يخرج (ماء)، بل سيخرج (هواء) وهذا هو حال الداعية الذي ينسى نفسه، ولا يتزود بما يحتاجه وينفعه، فهو قد ينجح في قيامه بأعمال دعوية بين الناس، لكنها أعمال غير مؤثرة أو منتجة .. يبذل جهداً، وينفق وقتاً ومالاً ولكن دون أثر إيجابي يذكر، سواء على نفسه أو الآخرين.

لا استثناء لأحد:

.. لو جاز لأحد أن يترك نفسه بدون زاد، بجاز لسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، فمع انشغاله الشديد بتبلیغ دعوة ربه، بحد الخطاب الإلهي الموجه إليه: " فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ " [الشح: 7]، أي إذا فرغت من الجهاد، ودعوة الناس، فانصب للعبادة⁽³⁾.

والذي يتأمل واقعه صلى الله عليه وسلم يجده حريضاً على دوام ذكر الله، وقراءة القرآن، وقيام الليل، لدرجة أنه لم يترك القيام في سفر أو حضر كما أخبرت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها⁽⁴⁾.

ولك أن تتأكد أكثر وأكثر بضرورة عدم التهاون في التزود اليومي بالزاد النافع إذا ما قرأت هذا الحديث:

عن أوس بن حذيفة الثقيفي أنه كان في الوفد الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مالك فأنزلهم في قبة في المسجد، قال: فكان يأتينا فيحدثنا بعد العشاء، وهو قائم حتى يراوح بين

(1) المصدر السابق 4/1864.

(2) صحيح، رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع (5837).

(3) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/479.

(4) رواه أبو داود.

قدميه من طول القيام.. فاحتبس عنا ليلة،

فقلنا: يا رسول الله لبست عنا الليلة أكثر مما كنت تلبث! فقال: «نعم طرأ على حزي من القرآن، فكرهت أن أخرج من المسجد حتى أقضيه»⁽¹⁾.

وعلى هذا النهج كان الصحابة -رضوان الله عليهم- كانوا دوماً يوازنون بين الزاد والحركة، ويدركون خطورة إهمال التزود؛ فهذا عبد الرحمن بن عبد القاري يقص علينا قصة عجيبة حدثت له مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: استأذنت على عمر بالهاجرة، فحبسني طويلاً، ثم أذن لي وقال: إني كنت في قضاء وردي⁽²⁾.

وإن تعجب فعجب فعل الأوائل في المعارك.. فعلى الرغم من الجهد العظيم الذي يبذل في ساحات القتال إلا أنها نجدهم يحرصون على قيام الليل، وتلاوة القرآن، والتضرع إلى الله عز وجل!! ولذلك أن تتأكد من هذا المعنى بقراءة هذا الخبر:

بعد معركة القادسية؛ والتي استمرت بضعة أيام، وانتهت بانتصار جيش المسلمين على جيش الفرس أرسل قائد الجيش سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسالة يبشره فيها بالفتح، فكان مما جاء فيها:

«وأصيب من المسلمين سعد بن عبد القارئ، وفلان، وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم.. كانوا يدowون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوى النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود»⁽³⁾.
هكذا كانوا:

وعندما نظر إلى حال المصلحين الذين كان لهم أثر إيجابي في تاريخ الأمة، نجدهم قد حفقوا التوازن بين الاهتمام بتحصيل الزاد وبين الحركة وبذل الجهد في سبيل الله.

يقول القاضي ابن شداد عن القائد العظيم صلاح الدين الأيوبي:

وأما الصلاة، فكان -رحمه الله- شديد المواظبة عليها، حتى إنه ذكر يوماً أنه من سنتين ما صلى إلا جماعة، وكان يواطِب على السنن الرواتب، وكان له صلوات يصلِّيها إذا استيقظ من الليل، وإنما أتى بها قبل قيام الفجر، وكان -رحمه الله- يحب سماع القرآن العظيم، وكان خاشعاً للقلب، غير

(1) رواه أبو داود، وأبي ماجة، وأحمد.

(2) فضائل القرآن لأبي عبد الحروي.

(3) البداية والنهاية لابن كثير 50/7

الدَّمْعُ، إِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ يَخْشَعُ قَلْبَهُ وَتَدْمِعُ عَيْنَهُ فِي مُعْظَمِ أَوْقَاتِهِ^(١).

وعندما نقرأ في رسائل الإمام المحدث حسن البنا، نجد أن هذا المعنى واضح تمامًا في كلامه.

يقول -رحمه الله- في رسالة إلى أي شيء ندعوا الناس:

إن مهمـة المسلم الحق لـحـصـها الله تبارـك وتعـالـى في قوله: " يـا أـئـيـهـا الـذـيـنـ آمـنـوا اـرـكـعـوا وـاسـجـدـوا وـاعـبـدـوا رـبـكـمـ وـافـعـلـوا الـخـيـرـ لـعـلـكـمـ تـفـلـحـونـ ﴿٤﴾ وـجـاهـدـوا فـي اللـهـ حـقـ جـهـادـهـ هـوـ اـجـتـبـاـكـمـ وـمـا جـعـلـوا عـلـيـكـمـ فـي الـذـيـنـ مـنـ حـرـاجـ مـلـةـ أـيـكـمـ إـبـرـاهـيمـ هـوـ سـمـاكـمـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ قـبـلـ وـفـي هـذـا لـيـكـونـ الرـسـوـلـ شـهـيدـاـ عـلـيـكـمـ وـتـكـوـنـوا شـهـدـاءـ عـلـى النـاسـ فـأـقـيـمـوا الصـلـاـةـ وـآتـوـ الرـزـكـاـ وـاعـتـصـمـوا بـالـلـهـ هـوـ مـوـلـاـكـمـ فـنـعـمـ الـمـؤـلـىـ وـنـعـمـ الـنـصـيرـ" [الحج: 77].

.. هذا كلام بين لا لبس فيه ولا غموض.. يأمر الله المسلمين أن يركعوا ويصلحوا وأن يقيموا الصلاة، وأن يفعلوا الخير ما استطاعوا... وتلك هي المهمة الفردية لكل مسلم التي يجب عليه أن يقوم بها بنفسه في خلوة أو جماعة.

ثم أمرهم بعد ذلك أن يجاهدوا في الله حق جهاده بنشر الدعوة وتعليمها بين الناس.

وقد كشف الله عن سر هذا التكليف وحكمـةـ هذهـ الفـريـضـةـ، فـبـيـنـ لـهـمـ أـنـهـ اـجـتـبـاـهـمـ وـاصـطـفـاـهـمـ دـوـنـ النـاسـ لـيـكـونـوا سـوـاسـ خـلـقـهـ، وـأـمـنـائـهـ عـلـىـ شـرـيعـتـهـ، وـوـرـثـةـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـيـ دـعـوـتـهـ.. وـتـلـكـ هيـ المـهـمـةـ الـجـمـاعـيـةـ الـتـيـ نـدـبـ اللـهـ إـلـيـهـ الـمـسـلـمـيـنـ جـمـيـعـاـ.. أـنـ يـكـونـوا صـفـاـ وـاحـدـاـ، وـكـتـلـةـ وـقـوـةـ، وـأـنـ يـكـونـوا هـمـ جـيـشـ الـخـلـاصـ الـذـيـ يـنـقـذـ الـبـشـرـيـةـ وـيـهـدـيـهـاـ سـوـاءـ السـبـيلـ.

ثم أوضح الحق تبارك وتعالي للناس بعد ذلك الرابطة بين التكاليف الفردية من صلاة وصوم.. بالتكاليف الاجتماعية، وأن الأولى وسيلة للثانية، وأن العقيدة الصحيحة أساسهما معاً، حتى لا يكون لأناس مندوحة من القعود عن فرائضهم الفردية بحجـةـ أـنـهـمـ يـعـمـلـونـ لـلـمـجـمـوـعـ، وـحـتـىـ لاـ يـكـونـ لـآـخـرـينـ منـدوـحةـ عـنـ الـقـعـودـ عـنـ الـعـمـلـ لـلـمـجـمـوـعـ بـحـجـةـ أـنـهـمـ مـشـغـلـوـنـ بـعـبـادـاـتـهـمـ، مـسـتـغـرـقـوـنـ فـيـ صـلـتـهـمـ بـرـبـهـمـ.

ويستطرد قائلاً:

أـيـهـاـ الـمـسـلـمـوـنـ.. عـبـادـةـ رـبـكـمـ، وـالـجـهـادـ فـيـ سـبـيلـ الـتـمـكـنـ لـدـيـنـكـمـ وـإـعـزـازـ شـرـيعـتـكـمـ هـيـ مـهـمـتـكـمـ فـيـ الـحـيـاةـ، فـإـنـ أـدـيـتـمـوـهـاـ حـقـ الـأـدـاءـ فـأـتـمـ الـفـائـرـوـنـ، وـإـنـ أـدـيـتـمـ بـعـضـهـاـ أـوـ أـهـلـتـمـوـهـاـ جـمـيـعـاـ فـإـلـيـكـمـ أـسـوـقـ قـوـلـ.

الله تبارك وتعالى: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَّادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ◇ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمُلِكُ" ^(١) [المؤمنون: 115، 116].

بأي الجوانب نبدأ؟!

بعد أن تعرفنا على الاحتياجات التربوية الأساسية للمسلم وأهمية كل جانب منها يبقى السؤال: بأي الجوانب نبدأ؟!

بلا شك أن العلم هو البداية: "فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" [محمد: 19]، فالعلم أساس العمل، ومع ذلك فليس المطلوب علما نظريا يعمق الفجوة بين القول والفعل، بل نريده علما نافعا راسخا يزيد القلب حشية وإيمانا.

لذلك فعلينا الاجتهاد بتحصيل أصل العلوم وأنفعها، ألا وهو «العلم بالله عز وجل»، والاجتهاد في تحويل هذه المعرفة إلى إيمان.

ولأن التربية الإيمانية -مفهومها الصحيح- تركز على معرفة الله عز وجل، وتتركز كذلك على ترجمة هذه المعرفة إلى معانٍ يرسخ مدلولها في القلب -أي أنها قد جمعت بين الخيرين- كان من المناسب البدء بجانب التربية الإيمانية.

من فوائد البدء بالتربية الإيمانية:

هناك حلقة مفقودة بين الأقوال والأفعال، والسبب الرئيس في ذلك هو ضعف الإيمان، فعندما يهيم الإيمان الحي على القلب فإنه يولد في ذات صاحبه باستمرار طاقة عظيمة، وقوة روحية تدفعه للقيام بالأفعال التي تناسب الموقف المختلفة.. لذلك فلو تجاوزنا البدء بالتربية الإيمانية فإن الفجوة ستزداد بين الواجب والواقع.. فعلى سبيل المثال:

لو بدأنا بالتربية النفسية فإننا قد نقتنع أن بداخلنا أصناماً ينبغي أن تزال، وأننا مصابون بداء العجب واستعظام النفس، ولكننا لن نستطيع مقاومة هذا المرض، والوقوف له بالمرصاد، لضعف القوة الروحية اللازمة لذلك.

ونفس الأمر لو بدأنا بالتركيز على التربية الحركية وبذل الجهد في سبيل الله، فسيتحول الأمر بمرور الوقت إلى أداء شكلي روئي بلا روح، وسيزحف إلى من يفعل ذلك الشعور بالفتور والوحشة وضيق الصدر، وسيفقد تأثيره على الآخرين شيئاً فشيئاً.

(١) رسالة إلى أي شيء ندعوه الناس؟ ص 41- 43 باختصار وتصرف يسير.

من هنا تظهر الحاجة إلى البدء بال التربية الإيمانية بمفهومها الصحيح⁽¹⁾ والذي ي العمل باستمرار على توليد القوة الروحية، وتنمية الدافع الذاتي، وتنمية الوعز الداخلي، وبث الروح في الأقوال والأفعال، ومن ثم يسهل على المرء بعد ذلك القيام بالأعمال المطلوبة لتحقيق أهداف التربية النفسية والحركية "إِنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ حَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجْهَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ" [المؤمنون: 57، 61].

* * *

(1) نسأل الله عز وجل أن يتفضل علينا بكرمه، ويسير لنا إتمام كتاب «التربية الإيمانية» فلعلك تجد فيه – إن شئت – ما يعطيك صورة متكاملة عن التربية الإيمانية بمفهومها الصحيح.

الرؤبة التربوية

بعد أن تعرفنا على الاحتياجات التربوية للفرد المسلم، وضرورة التكامل بينها، وخطورة إهمال جانب منها، يصبح من اليسير تشخيص الحالة التربوية لأي شخص.

معنى أن المخاور التربوية الأربع السابق ذكرها يمكنها أن تشكل المنظار الذي من خلاله يتم تقييم الفرد واحتياجاته التربوية.

فعلى سبيل المثال: لو تحدث إنسان وأحاد التعبير، وجادل وناظر، وأبهر من حوله بمعلوماته الغزيرة فإن ذلك ينبغي ألا يبهر المريض الذي يريد تحديد مستوى واحتياجاته التربوية، فالعلم الغزير لا يكفي، ناهيك عن مدى قربه أو بعده من مفهوم العلم النافع، بل لابد وأن يصحبه التزام صحيح بالعبادات والمعاملات في دوائر الحركة المختلفة، مع نكران للذات وتواضع غير مصطنع، وأيضاً: جهد يبذل في سبيل الله وتبلغ دعوته.

الرؤبة التربوية إذن هي «المنظار» الذي من خلاله يتم تحديد جوانب النقص التربوي عند الفرد أيًّا كان موقعه أو عمره أو ثقافته، وعلى ضوء هذه الرؤبة يتم تحديد احتياجاته التربوية.

ضوابط لا بد منها:

ومما تحدُّر الإشارة إليه أن هذا المنظار ينبغي أن يستخدمه كل منا مع نفسه أولاً، وأن يوجهه إلى ذاته ليرى جوانب نقصه، ويحدد احتياجاته.

وفي المقابل عليه ألا يوجهه إلى الآخرين طالما أنه لا يقوم على أمر تربيتهم، فليس المطلوب هنا تقييم من حولنا طالما لا يوجد مبرر شرعي لذلك.

ولنتذكر أن من أعظم شهوات النفس الخفية الكلام عن الآخرين، وتقييم مواقفهم، وتجريحهم لأنها حينئذ تشعر بتميزها عليهم، وما يجعلها تستصغر أي نقص لديها، وشيئاً فشيئاً يتعود المرء على ذلك حتى يتحقق فيه قوله صلى الله عليه وسلم: «يبصر أحدهم القذر في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه»⁽¹⁾.

أما المريض الذي يتولى أمر تربية غيره كالأب مع أبنائه، فله أن يستخدم هذا المنظار معهم، ويحدد من خلاله احتياجاتهم التربوية، بعد أن يكون قد وجهه إلى نفسه أولاً، واجتهد في استكمال ما ينقصه، حتى لا تكون هذه الرؤبة فتنة له... يقول ابن عطاء: من اطلع على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنه عليه، وسبباً لجر الوصال إليه.

(1) صحيح الجامع الصغير (8013).

جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: أن يا
عيسى عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإن فاستحي مني.

* * *

استمرارية التربية

كان هناك شخص حريص على تنمية ذاته... كثير القراءة والاطلاع... واسع المعرفة، منضبطاً في التزامه بأوامر الشرع، مسارعاً في الخيرات، له جهد يبذله في دعوة الناس إلى الله، وكان حديثه شيئاً مؤثراً يحمل دوماً الجديد والجديد.

واستمر على ذلك الحال سنوات طويلة، ثم بدا له أن ينتقل من عمله الذي يعمل فيه ساعات قليلة إلى عمل آخر يتحقق من خلاله طموحه الوظيفي الدنيوي، وكانت ضرورة هذا الانتقال استهلاكاً لهذا العمل لأغلب وقته، لينعكس ذلك على حياته والتزامه وجهده الدعوي، فالوقت مستهلك، والجسد منهك، ومن ثم لا يكاد يجد وقتاً يعده فيه عقله بالعلم النافع، ولا قلبه بالإيمان، ولا نفسه بالترويض والجهاد، فكانت النتيجة أن تغير حاله بالسلب، وأصبح جهده في الدعوة قليل، وأنثره ضعيف، إن تكلم في الدعوة فكلامه مكرر يفقد الحماس والروح... تغيرت اهتماماته، وطموحاته لتجه أكثر وأكثر نحو الأرض والطين.

هذه الحالة التي تزداد نسبة وجودها يوماً بعد يوم تدفعنا للحديث عن ضرورة استمرارية التربية.

إلى متى التربية؟!

يقول الأستاذ محمد قطب: «ال التربية لا تقطع ولا تتوقف عند فترة معنية، ولا ينصرف الناس عنها إلى أمر آخر، لأن الأمر الذي استوجبها دائم لا ينقطع ولا يتوقف»⁽¹⁾.

فطالما أن الإنسان حي فهو بحاجة إلى تغذية مستمرة لمكوناته الأربع؛ فالتوجيه الإلهي بعبادة الله حتى الموت "وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ" [الحجر: 99]، يستلزم استمرار التعاهد والإيمان ودفع المضار عن المكونات الأربع حتى تتحقق العبودية الحقة لله عز وجل وتستمر حتى الممات.. تأمل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ وَمَنْ يَكُفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًاً بَعِيدًاً" [النساء: 136]، (أي حافظوا على إيمانكم، استمراوا فيه، لا تغفلوا عنه.. لا تفتروا عن المحافظة عليه.. لا تفتروا عن معاهدته ورعايته وتغذيته وقويته والحرص عليه)⁽²⁾.

وما يؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ الإِيمَانَ يُخْلِقُ فِي الْقُلُوبِ كَمَا يُخْلِقُ الثُّوبَ فَجَدَدُوا إِيمَانَكُمْ»⁽³⁾.

(1) مكانه التربية في العمل الإسلامي ص 28 - دار الشروق.

(2) المصدر السابق ص 26.

(3) رواه الإمام أحمد وغيره، وخلق الثوب يعني بلبي.

يقول د. عبد الستار فتح الله في تعليقه على هذا الحديث:

والحديث من جوامع الكلم، وهو على إيجازه يشتمل على حقيقة نفسية مؤكدة، وعلى تشبيه يجعلها كالمحسوس، وعلى أمر صريح بتجديده الإيمان.

انظر إلى ثيابك -مثلاً- كم يُبذل فيها غسلاً، وإصلاحاً، ومحافظة، ورتقان، ثم تجديداً شاملاً إذا بليت، وهذا يتكرر مع الساعات والأيام، والشهور والأعوام، ولا يمل منه أحد.

ولا شك أن (الإيمان) أولى وأجدى وأبقى، فينبغي أن تتعهد له ليظل على إشراقه في القلوب⁽¹⁾.

(إن القلب البشري سريع التقلب، سريع النسيان، وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور... فإذا طال عليه الأمد بلا تذكرة، تبدل وقسا، وانطممت إشراقه، وأظلم وأعمم، فلا بد من تذكرة هذا القلب.. ولابد من اليقظة الدائمة كي لا يصبه التبدل والقصاؤة)⁽²⁾.

عتاب للصفوة:

لعل في عتاب الله -عز وجل- للصحابة ما يجعلنا نجتهد دوماً في الإمداد التربوي المستمر لذواتنا.. هذا العتاب بحده في قوله تعالى: + أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْثَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ [الحديد: 16].

وقد روي أن المؤمنين كانوا مجذفين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه من الحشو، فنزلت الآية.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، والآية مدنية بالإجماع، ولعل المقصود (هجرتنا) بدل (إسلامنا) كما يقول د. عبد الستار فتح الله، وذلك للجمع بينها وبين الرواية التالية:

عن ابن عباس رضي الله عنهم: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن الكريم⁽³⁾.

فمهما تقدم عمر المرء، ومهما ارتقى في سلم المسؤولية فلا بد له من الاستمرار في التربية حتى يستمر قيامه بحقوق العبودية لله عز وجل، وأن تشمل هذه التربية المكونات الأربع السابق ذكرها.

(1) آن الأوان لتجديده الإيمان ص 6.

(2) في ظلال القرآن 6/3489.

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 4/279 - مكتبة العبيكان.

لماذا لا تظهر ثمرة التربية؟!

ثمرة التربية هي ظهور المسلم الصالح المصلح، أو بعبارة أخرى: ظهور المسلم العالم بربه، الفاهم لدینه، العارف بزمانه الذي تمثل فيه معانی الإسلام بصورة صحيحة من إخلاص لله، وإحسان في عبادته، وتضحية من أجله، وعمل دائم في سبيله، وصبر وثبات على طريقه، وأخوة صادقة مع إخوانه المسلمين.. ويصبح هذا كله بصبغة التواضع ونكران الذات.

.. هذا الشمرة ينبغي أن تكون نتاج الجهد الذاتي الذي يبذله الفرد مع نفسه، ويبذله معه المربيون (كالأبوين وغيرهما) على مسار حياته. ولكن الواقع لا يقول ذلك، فعلى الرغم من الجهد الكبير الذي يبذل في مجال التربية إلا أن الشكوى متكررة من عدم ظهور الثمرة المرجوة من هذا الجهد.

ولأن التربية هي الطريق الصحيح للتغيير ومن ثم إصلاح الفرد والأمة، فلا مناص من التفكير العميق الجاد في هذه الشكوى والبحث عن الأسباب الحقيقة لعدم ظهور الشمرة ولعل الصفحات السابقة قد ألمت الضوء على بعض هذه الأسباب، إلا أن هناك أسباباً أخرى تسهم -إلى حد كبير- في عدم ظهور ثمرة التربية، منها: عدم وجود الاستعداد الكافي لدى الفرد للتربية والتغيير.

ومنها كذلك اكتمال ملء الفراغات التكوينية الرئيسة في شخصيته -سواء كان ذلك بطريقة صحيحة أو خطأ- مما يحول بينه وبين حسن التلقى لأي جديد، ومن ثم التغيير.

السن الصغيرة والاستعداد الكبير:

من أهم عناصر نجاح العملية التربوية: وجود الاستعداد للتلقى والتوجيه والتغيير لدى الفرد. هذا الاستعداد يكون كبيراً في الصغر، ويتناقص بمرور الأيام والشهر والسنين.

وتحليل ذلك أن الطفل بعد ولادته يبدأ شيئاً فشيئاً في تحسس خطواته في الدنيا فيفاجأ أنه يحتاج إلى الكثير والكثير كي يستطيع التعامل مع الموجودات المختلفة.

ينظر من حوله فيجدتهم يحسنون التعامل مع كل شيء.. مع الماء، مع النار، مع الأبواب والنوافذ، مع التلزار والأجهزة المختلفة، بينما لا يستطيع هو أن يفعل مثلهم، لذلك ينظر إليهم نظرة إجلال وإكبار، ويضعفهم في مقام الأستاذية والتوجيه، فيسلم لهم قياده، ويميلهم من ذاته بالكلية ليمدوه بخبراتهم وما تعلموه في الحياة، وما يعتقدونه من مفاهيم وأفكار سواء كانت صحيحة أم خطأ -وفي الغالب تكون أول جهة لذلك التوجيه هي الأبوان اللذان تفتح عيناه في الدنيا فيجدهما أمامه.

فالابن في السن الصغيرة ينظر إلى أبيه نظرة استعظام، لما يراه منهما من قدرة على التعامل مع الأشياء ولأنهما أيضاً مصدر شعوره بالراحة والأمان والشبع، لذلك فهو يتاثر بهما تأثراً بالغاً، ويأخذ منهما كل ما يمكن أخذنه في هذه السن.. وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم : «ما من مولود إلا يولد على

الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه⁽¹⁾.

فعلى سبيل المثال: الطفل الذي يولد في الصين يولد وهو لا يعرف الصينية لكنه يجد أبويه ينطقان بأصوات لا يعرفها، وتدوي هذه الأصوات إلى حدوث التفاهم بينهما، وقيام كل منهما بأفعال نتيجة سماعه لها، فهو يسمع أمه تقول شيئاً فيحضر أبوه شراباً (الماء)، ويسمعاها تقول شيئاً آخر فيحضر طعاماً، وهكذا، فيؤدي ذلك إلى زيادة شغفه لتعلم هذه الأصوات، فينصت لهم، ويتعلم منهما ليكتسب بمرور الوقت القدرة على الفهم والنطق والتعامل باللغة الصينية.

هذا الطفل لو ولد في الهند لتعلم الهندية، ولو ولد في مصر لتعلم العربية، فالابن يعتبر أبويه هما عالمه ومصدر توجيهه، لذلك يستسلم لهما، ويأخذ منهما كل ما يمكن أخذه من أقوال وأعمال ورددود أفعال، وتعامل مع الأشياء مهما كانت نوعية هذه الأمور.

وكما كبر سن هذا الطفل قل احتياجه للآخرين وقل كذلك استعداده للتلقى منهم، وتبدلت نظرته لغيره من نظرة انبهار بما عندهم إلى نظرة عادلة، فقد أصبح يتلقي رصيداً لا يأس به من المعرفة والتجارب والمعتقدات تمكّنه من السير في الحياة والتعامل مع مستجداتها. فإذا ما قل احتياجه للآخرين قلت رغبته في التلقى منهم، وهذا لا يحدث في يوم وليلة بل يتناقض شعوره بالاحتياج للآخرين تدريجياً بعد مرور سنوات عمره الأولى.. هذا التناقض يعكس تقلص مساحة الفراغات الموجودة في شخصيته.

الاليقن الواسع وصعوبة تغييره:

والسبب الآخر لعدم ظهور ثمرة التربية بصورة مرضية هو رسوخ بعض المفاهيم والمعتقدات داخل الإنسان سواء كانت صحيحة أو خاطئة.. هذا الرسوخ يزداد عمقاً كلما تقدم العمر، ومن ثم فإن تغييره يصبح أمراً عسيراً.

ولئن كانت التربية الإسلامية هي إحداث أثر «إيجابي» دائم في ذات الإنسان، فإن هذا الأثر الدائم تزداد صعوبة إحداثه كلما تقدم العمر وذلك لرسوخه وتأصله.

.. هذا الرسوخ يزداد عمقاً وتجذراً بمرور السنين، ويصبح كالجبل الرواسي.

فلو فرضنا أن هناك شخصاً متواضعاً يقبل النصح من الآخرين، ويعطي لهم سمعه، وبصره، ولديه استعداد جيد للتلقى من غيره فإن هذا لا يكفي في عملية التغيير الجذري؛ لأنه مهما بلغت قوته تأثير الآخرين عليه إلا أنها لا تصل للحد الذي يؤدي إلى إحداث التغيير وزلزلة ما رسخ لديه وأصبح كالجبل الرواسي.

.. نعم، قد يتأثر بما يسمع أو يقرأ، لكنه في الغالب سيكون تأثراً لحظياً وسرعان ما يعود لسابق حاله الذي يعكس ما رسخ لديه من مفاهيم ومعتقدات وتصورات.

وهذا مما يفسر لنا عدم ظهور ثمرة التربية.

(1) رواه البخاري ومسلم.

هل نترك التربية؟!

هذا الحديث عن أسباب عدم ظهور ثمرة التربية بصورة صحيحة ليس معناه ترك التربية، فال التربية أمر لا بديل عنه إن أردنا تغيير ما بأنفسنا وإصلاح حال الأمة، ولكن معناه البحث والتركيز على وسائل ذات أثر بالغ في القوة، لكي نتمكن بعون الله من التأثير في الثواب الخاطفة التي تربينا عليها منذ الصغر، وزلزلتها، وإبدالها بالمعتقدات والمفاهيم الصحيحة⁽¹⁾.

ومعناه كذلك الاهتمام الشديد بتنشئة الأطفال تنشئة صحيحة قدر المستطاع حتى يستقيم عودهم منذ البداية.

(1) لعل هذا الكلام يجيب عن تساؤل المتسائلين عن السبب الذي يدفع كاتب هذا السطور إلى كثرة الحديث عن القرآن، فالقرآن لا يوجد له مثيل في قوته تأثيره وزلزلته لكل الأفكار والتصورات الخاطئة وهدمها، حتى ولو كانت هذه الأفكار والتصورات قد رسخت في بقى الإنسان رسوخ الحال الرواسي، فالقرآن قادر بإذن الله على هدمها وإحلال المفاهيم الصحيحة مكانها، لم يقل سجانه في وصف قوته تأثيره: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جِبِلٍ لَّوْأَتْهُ خَاشِعًا مُّضْدِدًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ فُرَاتًا مَّيْكِرْتُ بِهِ الْجَيْلَانُ أَوْ فَطَّعْتُ بِهِ الْأَرْضَ أَوْ كَلَمْ بِهِ الْمَوْقَى﴾ [الرعد: 31]، وحواب الشرط مخلوف وتقديره: لكن هذا القرآن.. ولعل ما حادث من تغير حذري في حبل الصحاوة غير دليل على مدى قوته تأثير القرآن، فقد كان منهم من تعدد الثلاثين والأربعين والخمسين سنة وقت إسلامه، ومع ذلك صنع القرآن منهم جيلاً فريداً لا زالت تixer به البشرية حتى الآن.

ولفن كانت التربية لا بديل عنها لإصلاح الفرد والأمة؛ وإن كان الجهد المبذول فيها على ضخامته لا يأتى بالثمرة المطلوبة، فإن الحل الأمثل لهذا الإشكالية يمكن في العودة الصحيحة إلى القرآن، وحسن التعامل معه، والتعرض لقوته تأثيره، وتحقيق الوصال بينه وبين العقل والقلب، وبالإضافة إلى القرآن تأتي الوسائل التربوية الأخرى كوسائل تكميلية، وفي المقابل فإننا إن تجاوزنا القرآن كوسيلة متفردة للتأثير والتغيير فسنظل تعانى ونشكو ونتساءل لماذا لا تغير ولا تتحسن؟!

والناظر في تاريخ المصلحين يجد أن محور دعوتهم كان يرتكز على العودة الصحيحة للقرآن، والاتفاق بقوته تأثيره الضخمة، ومن هؤلاء بديع الزمان التورسي، محمد إقبال، حسن البنا، عبد الحميد بن باذيس وسید قطب.

يقول محمد إقبال: إن القرآن ليس بكتاب فحسب... إنه أكثر من ذلك، إذا دخل القلب تغير الإنسان، وإذا تغير الإنسان تغير العالم (روائع إقبال ص 158). وعندما تحدث الإمام حسن البنا عن مقاصد الدعوة قال: تصحيح فهم المسلمين لديهم، وشرح دعوة القرآن الكريم شرحاً واضحاً.. ثم جمع المسلمين عملياً على مبادئ كتابهم الكريم بتحديد أثره البالغ القوى في النفوس (رسالة في اجتماع رؤساء المذاهب).

ويقول عبد الحميد بن باذيس: لا فلاخ للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدایته، والاستقاماة على طريقته.

ويقول سید قطب: إن الناس يحسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن.. وإن الآية الواحدة، لتصنع أحاناً في النفس - حين تستمع لها وتقتضي - أعيجباً من الانفعال والتأثير والاستجابة والتكييف والرؤبة والإدراك والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الوعائية المستبررة.. مما لا يدركه إلا من ذائقه وعمره!

وإن العكوف على هذا القرآن في وعي وتدارك لا مجرد النثارة والتزم! ليشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة؛ ومن الحرارة والحيوية والانطلاق! ومن الإيجابية والمعرفة والتضييم ما لا تداركه رياضة أخرى أو معرفة أو تجربة! (في ظلال القرآن / 3) (1425).

الخطوة الأولى... عزم وتوكل

لو أن صاحب شركة من الشركات قد أيقظه زين الهاتف في منتصف الليل، وأخبره المتصل بأنه قد حدث حريق في الشركة.. ماذا تتوقع أن يكون رد فعله؟ هل سيقول في نفسه: سأذهب لأطمئن على الوضع في الصباح ثم يستكمل نومه؟ بالتأكيد سيفزع ويشعر بالخطر الشديد، ويسارع إلى الشركة باذلا غاية جهده في محاولة تقليل الخسائر وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فالشعور بالخطر هو الذي يحرك العزائم، ويستنفر الطاقات المخزونة في ذات الإنسان؛ ولقد أكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل»⁽¹⁾.

من هنا نقول بأن استشعار خطر ترك التربية الصحيحة المتكاملة المؤثرة للفرد والأمة هو البداية الصحيحة لتدارك ما فات، واستكمال ما نَفْصُص، ولعل ما قيل في الصفحات السابقة يكون سبيلاً - بإذن الله - لإشعارنا بالقلق والخطر وباحتتنا إلى التربية، ويدفعنا لاستكمال ما ينقصنا، و يجعلنا دوماً في حالة من التوقي و الإيجابية.

الإمداد على قدر الاستعداد:

قبل أن نبدأ رحلة استكمال ما ينقصنا، علينا أن نتذكر حقيقة مهمة وهي أن الله عز وجل هو الذي يذكر ويرى، فهو سبحانه: "خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" [الزمر: 62].
"وَأَمْرَ صَلَاحَنَا وَفَلَاحَنَا فِي خَزَائِنَهِ" وَإِنْ مَنْ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَتَّلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: 21].

ولقد جعل سبحانه أهم سبب لإمداد الإنسان بما يصلحه هو: وجود الرغبة الأكيدة لديه، كما في الحديث القدسي: «يَا عَبَادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلَّا مِنْ هُدِيَتِهِ فَاسْتَهْدُوْنِي أَهْدُكُمْ»⁽²⁾.

فالحديث يؤكّد على أن المداية من عند الله، وأنه سبحانه يمنحها من يسألها ويريدها، وما يؤكّد هذا المعنى قوله تعالى: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ مَا زَگَ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ" [النور: 21].

فالله عز وجل هو الذي يُزكّي.. هذه هي الحقيقة، ولكن يُزكّي من؟!

يزكي من يراه مستعداً ومريداً للتزكية، ولهذا ختمت الآية بقوله: (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْمٌ).

فالإمداد بحسب الاستعداد، وعلى قدر الصدق في طلب الشيء يكون المدد من الله عز وجل، كما

(1) صحيح الجامع الصغير (6222).

(2) رواه مسلم.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن تصدق الله يصدقك»⁽¹⁾.

فمن يرد الخير بصدق يدله الله عليه وينحه إياه «ومن يتحرى الخير يعطه ومن يبتق الشر يوقه»⁽²⁾.

ومن يصدق عزمه في طلب العفة يعفه الله «ومن يستغفف يعفه الله»⁽³⁾.

ومن يصدق عزمه في طلب العلم يعلمه الله «إنما العلم بالتعلم».

العزيمة على الرشد:

فالخطوة الأولى -إذن- في طريق استكمال نواصينا التربوية هي الصدق في طلب ذلك، والعزم الأكيد على تزكية عقولنا وقلوبنا وأنفسنا وجهدنا، وأن تكون من عناهم الله -عز وجل- بقوله: **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحَمِّلُهُمْ أَذْلَلَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَا إِيمَانَ** [المائدة: 54]، فعلى قدر العزم يكون المدد: **فَإِذَا عَزَّمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** [محمد: 21]، فالخير كله -كما يقول ابن رجب- منوط بالعزيمة الصادقة على الرشد، وهي الحملة الأولى التي تحزم جيوش الباطل، وتوجب الغلبة لجنود الحق.

.. قال أبو حازم: إذا عزم العبد على ترك الآثام، أنته الفتوح.

وسئل بعض السلف: متى ترحل الدنيا من القلب؟ قال: إذا وقعت العزيمة ترحلت الدنيا من القلب، ودرج القلب في مملكت السماء، وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى الدنيا.

ويستطرد ابن رجب قائلاً:

مَنْ صَدَقَ الْعِزِيمَةَ يَئْسَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، وَمَنْتَ كَانَ الْعَبْدُ مُتَرَدِّدًا طَمْعًا فِيهِ الشَّيْطَانُ، وَسُوْفَهُ وَمَنَاهُ.

.. يا هذا: كلما رأك الشيطان قد خرجت من مجالس الذكر كما دخلت،

وأنت غير عازم على الرشد فرح بك إبليس⁽⁴⁾.

فعون الله للعبد على قدر قوته عزيمته وضعفها، فمن صمم على إرادة الخير أعاذه الله وثبته⁽⁵⁾.

فالبداية-إذن- عزم أكيد ثم الاستعانة الصادقة بالله في تحقيق هذا العزم:

فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ كَانَ عَلَى اللَّهِ [آل عمران: 159].

(1) صحيح، رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (1415).

(2) حسن، أخرجه الخطيب البغدادي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (2328).

(3) رواه البخاري ومسلم.

(4) مجموع رسائل ابن رجب 1/348.

(5) المصدر السابق 1/344.

ولنعلم جميًعاً أن الله -عز وجل- وحده هو الذي يملك إمدادنا بما عزمنا عليه، وأنه سبحانه يريد أن يرى منا صدقنا فيما نعمل، وأهم صورة لإظهار هذا الصدق هو الإلتحاح عليه، والتضرع بين يديه.. تصرُّع واستغاثة تشبه استغاثة الغريق الذي يستغيث بمن حوله ليسارعوا في إنقاذه.

يقول صلى الله عليه وسلم: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شَاءَ، وَلِيَعْزِمْ الْمَسَأَةَ، وَلِيَعْظِمْ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْظِمُ عَلَيْهِ شَيْءًا أَعْطَاهُ»⁽¹⁾.

اعزم وتوكل وانطلق:

وبعد صدق العزم والتوكيل على الله علينا أن نشرع في استكمال ما ينقصنا من جوانب التربية المختلفة، وإن كان من الأفضل أن نبدأ بالتربية الإيمانية كما أسلفنا وتبعها بعد ذلك بالجوانب الأخرى حتى يتحقق التوازن التربوي بعون المأ.

ولعل من أهم الأسباب التي تعين المرء على الاستمرار في تربية نفسه وبذل جهده في سبيل الله هو وجوده في وسط صالح، وصحبة طيبة، إذا نسي ذكره، وإذا عزم أمانوه، وإذا غاب تفقدوه " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَّيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا" [الكهف: 28].

وفي النهاية نسأل الله عز وجل أن يتقبل منا ما وفقنا إليه، وأن يعيننا جميًعاً على استكمال ما ينقصنا لكي تكون عيًداً مخلصين له غير ضالين ولا مضلين.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لننهضي لو لا أن هدانا الله
وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(1) صحيح الجامع الصغير (530).

فهرس المحتويات

	الموضوع
.....	المقدمة
.....	معنى التربية
.....	التغير والأثر الدائم
.....	الفارق بين التعليم والتربية
.....	حاجة الإنسان إلى التربية
.....	ضرورة التربية الصحيحة
.....	الحياة السعيدة
.....	حاجة الأمة الماسّة للتربية
.....	الخير المخبأ
.....	أهمية الجهاد
.....	ماذا لو فرطنا؟
.....	لماذا تُعاقب؟
.....	إصلاح الداخل أولاً
.....	لا بديل عن التربية
.....	هل من الضروري تربية الأمة كلها؟
.....	الجمرة المشتعلة
.....	المحور الأول: العقل والتربية المعرفية
.....	الكل ي عمل من أجلك
.....	الوسيلة المنفردة
.....	العرض المتحرك
.....	هيا أبصر واعتبر
.....	الذنب الأكبر
.....	العلم الحقيقي
.....	العلم النافع
.....	غاية العلم
.....	الباب الأعظم
.....	العقل المعطل
.....	فلننتبه قبل فوات الأوان
.....	فضيلة التفكير
.....	علم اليقين

الموضوع

مستهدف التربية المعرفية

الخور الثاني: القلب والتربية الإيمانية

مركز الإرادة

المعرفة وحدها لا تكفي

أفلا تتقون؟

عندما يضعف الإيمان

الإيمان يصنع المعجزات

الحارس الأمين

الإيمان وحل المشكلات

اليقظة الدائمة

هكذا كان حال الصحابة

مستهدف التربية الإيمانية

الخور الثالث: النفس وضرورة تزكيتها

ما هي النفس؟

أقسام هوى النفس

الشهوة الخفية

خطورة الرضا عن النفس والإعجاب بها

ما هو العجب؟

لماذا يحيط العجب العمل؟

وأن أعمل صالحاً ترضاه

ماذا لو أهملت التربية النفسيّة؟ !

نماذج مضيئة

مستهدف التربية النفسية

الخور الرابع: بذل الجهد في سبيل الله

لا مصادمة للغطرسة

الخور الأول: العمل الصالح

الخور الثاني: دعوة الخلق إلى الله

وإسلاماً

مستهدف التربية الحركية

التكامل التربوي

إحسان العمل أولاً

الموضوع

احذر نفسك	احذر نفسك
الحركة المباركة	الحركة المباركة
ماذا لو أهملت التربية؟	ماذا لو أهملت التربية؟
أعلم ولكن لا أستطيع	أعلم ولكن لا أستطيع
عبادة الذات	عبادة الذات
تفريغ الطاقة وبدل الجهد	تفريغ الطاقة وبدل الجهد
خطورة الحركة بدون زاد	خطورة الحركة بدون زاد
لا استثناء لأحد	لا استثناء لأحد
هكذا كانوا	هكذا كانوا
بأي الجوانب نبدأ؟	بأي الجوانب نبدأ؟
من فوائد البدء بالتربية الإيمانية	من فوائد البدء بالتربية الإيمانية
الرؤية التربوية	
ضوابط لابد منها	ضوابط لابد منها
استمرارية التربية	
إلى متى التربية؟	إلى متى التربية؟
عتاب للصفوة	عتاب للصفوة
لماذا لا تظهر ثمرة التربية؟	
السن الصغيرة والاستعداد الكبير	السن الصغيرة والاستعداد الكبير
اليقين الراسخ وصعوبة تغييره	اليقين الراسخ وصعوبة تغييره
هل نترك التربية؟	هل نترك التربية؟
الخطوة الأولى: عزم وتوكل	
الإمداد على قدر الاستعداد	الإمداد على قدر الاستعداد
العزيمة على الرشد	العزيمة على الرشد
اعزم وتوكل وانطلق	اعزم وتوكل وانطلق
الفهرس	الفهرس

* * *